الدكتور شوقي أبو خليل

فتح صقلية

بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

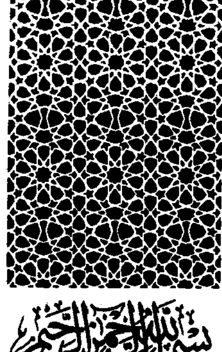
دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥,٠٣١
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٦٤٤,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-510-3
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: فتح صقلية
التأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٩٦ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة



دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
1418هـ = 1998 م
ط1 : 1980 م



بسم الله الرحمن الرحيم

فتح صقلية

بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات

كمين باب الشيزري : ممر رونسفال؛ فتح صقلية : بقيادة أسد بن الفرات/
شوقي أبو خليل . - دمشق : دار الفكر، ١٩٩٨ . - ٩٤ص؛ ٢٠سم . -
(المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٨٠ .
١- ٩٥٦,٠٧ خ ل ي ك ٢- العنوان الأول ٣- العنوان الثاني ٤- أبو
خليل ٥- السلسلة
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/٢/٣٣١

تصدير

✶ إن انتصار المسلمين على الروم في اليرموك وذات الصواري ، أنساهم روعةانتصار الاسكندر على داريوس ، وانتصار روما على هانيبال ، وانتصار الامبراطور أورليانوس على زنوبيا •

كانت الفتوحات الاسلامية في صدر الاسلام ، في عهد الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ايذاناً بظهور المجد الاسلامي البحري ، والسيادة الاسلامية في البحر المتوسط ، وبخاصة بعد سيطرة المسلمين على سواحل الشام ومصر ، وكان هذا ايذاناً أيضاً ـ كنتيجة طبيعية ـ بزوال السيادة الرومانية عن المتوسط •

وفجر السيادة الاسلامية في البحر مدين بشكل مباشر للخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فقد أذن لواليه في الشام معاوية بن أبي سفيان بغزو الروم بحراً ، شريطة أن تكون الخدمة البحرية تطوعاً ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزا قبرص والجزر اليونانية بحملات خرجت من شواطىء الشام ، وقدر المؤرخون الأسطول الذي هاجم قبرص أيام عثمان بألف وتسعمائة سفينة •

كان عهد عثمان رضي الله عنه بداية بناء وظهور الأسطول الاسلامي ، وبالتالي بداية السيادة الاسلامية على البحر المتوسط ، ففي عهده اتسعت الخلافة الاسلامية ، وشملت أمما بحرية ، فأضحت مضطرة الى مواجهات بحرية ، جعلتها بحاجة ماسة الى أسطول يفتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط ، لضمان الدفاع عن سواحل الخلافة .

وبهذا يمكننا التأكيد على أن الدافع الرئيسي لبناء الأسطول الاسلامي كان حاجة المسلمين للدفاع عن فتوحاتهم التي بذلوا في سبيلها أرواحهم حتى ملكوا البر ، ونظروا الى البحر فرأوا أنه مازال في قبضة أعدائهم الروم البيزنطيين ، ولا منافس لهم فيه ، خصوصاً عندما أظهروا قوتهم البحرية أيام الامبراطور «كونستانس الثاني» ابن هرقل ، الذي أرسل سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م ثلاثمائة سفينة رومية ، عليها آلاف الجند لاسترداد مصر .

وفي سنة ٣٢ هـ كانت معركة « ذات الصواري » ، تلك المعركة البحرية الفاصلة بين المسلمين والروم البيزنطيين التي انتهت بأول نصر بحري إسلامي ، نتيجة للتفكير السليم ، والخطة المدروسة غير العادية ، حيث ربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض بسلاسل ثقيلة متينة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم ، كما استخدموا خطاطيف طويلة اصطادوا بها صواري السفن البيزنطية ، الأمر الذي أنهى المعركة بكارثة على الروم البيزنطيين ، كما فصلنا في الجزء الرابع من هذه السلسلة .

واطمأن المسلمون الى قوتهم البحرية بعد ذات الصواري ،

وادركوا امكان تفوقهم البحري في المتوسط بعد أن انتصروا على أقوى أسطول كان فيه .

اطمأن المسلمون الى قوتهم البحرية ، فأولوها عنايتهم ، وكان لمعاوية بن أبي سفيان ــ سواء أكان في ولايته ، أم في خلافته في الشام ــ الفضل الأول في ارتياد المسلمين البحر ، وفي تنظيم البحرية الاسلامية .

كما قامت في الأندلس ، في الحوض الغــربي للمتوسط ، بحرية اسلامية ، انتظمت واكتملت زمن الناصر عبد الرحمن الثالث ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

ومن الملاحظ أن دولة الاسلام جعلت لرجال البحرية أجوراً عالية ، ومكافآت كبيرة ، ومنزلة رفيعة ، حتى أن بني أميــة في الأندلس ، جعلوا أمير البحر أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الدولة ، وأسموه « قسيم الخليفة » في السلطة ، فالخليفة يحكم البر ، وذاك يحكم البحر .

واقتنع الروم بعد « ذات الصواري » أن حملاتهم البحرية والبرية ، لن ترجع اليهم مصر أو الشام ، وأن كل مجهود يبذلونه فهو فاشل ضائع ، وكل المحاولات تغدو لا جدوى منها بعد بناء الأسطول الاسلامي في عكا على سواحل الشــام ، وفي جزيرة الروضة ، والقلزم ــ السويس حاليا ــ وفي الاسكندرية على سواحل مصر .

إن انتصار المسلمين في اليرموك ــ وفي ذات الصواري ــ اليرموك البحرية ــ أنسى الروم روعة انتصار الاسكندر على داريوس ، وانتصار روما على هانيبال ، وانتصار الامبراطور أورليانوس على زنوبيا ، وبدأ أباطرة القسطنطينية ينظمون دولتهم على أساس الأمر الواقع ، فأخذوا بتقوية حصونهم ، وبخاصة حول عاصمتهم ، لصد هجمات المسلمين ، الذين بدؤوا يتطلعون الى عاصمة الروم « القسطنطينية » .

وهكذا ... بدأت الأساطيل الاسلامية تجول في البحر المتوسط بحرية ، وبمرور الأعوام سيطرت على شواطئه الشرقية في الشام ، ثم على شواطئه الجنوبية في مصر والمغرب العربي ، ثم فتح المسلمون الأندلس ، فوصلوا الى جنوب فرنسة ، فسيطروا بذلك على معظم أرجاء شمال البحر المتوسط ، وتحوّل بذلك الى بحيرة اسلامية ، بعد أن كان الى عهد « جستنيان » بحيرة بيزنطية رومية .

وبسيادة المسلمين على المتوسط وجزائره ، أضحت لهم قواعد بحرية ممتازة في عكا والاسكندرية ، وكريت وتونس وصقلية ، وبارة وتارنت بجنوبي ايطالية ، وعند ساحل نابولي في جزيرة بونتزا ، وفي جنوبي فرنسة على ساحل بروفانس في فراكسنيتيوم ، وكذلك في جزيرة كامرج وفي مدينة ماجلون غربي نهر الرون ، بالاضافة الى جزر البليار ، وقواعد سواحل اسبانية .

وتنوعت قطع الأسطول الاسلامي حجماً وغاية ، فكان منها : الشواني المزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وفيها مخازن

القمح وصهاريج المياه ، تسير بقوة مائة وثلاثة وأربعين مجدافاً ، والحراريق التي حملت النار الاغريقية ، والبطس التي حوت عدة طبقات ولها أكثر من أربعين شراعاً ، وتستخدم في حمل الأزواد والذخيرة والرجال حتى ١٥٠٠ مجاهد . والبركوس والغراب والمسطحات والطرائد والشلنديات والقراقير والطرادات والدرمونة والفلايك ...

وجهزت الأساطيل الاسلامية بالنار الاغريقية التي كانت سلاحاً سرياً أخفته بيزنطة ، وكان سببا في فشل الاسطول الاسلامي الذي حاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

قال ابن خلدون : « وقد كان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المتقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص .. وسائر ممالك الروم والافرنج » .

واعترف المؤرخون الأوربيون بعظمة البحرية الاسلامية في البحر المتوسط ، فقد ذكر « آدم متز » في كتابه « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » :

« لم يكن لأوربة سلطان على البحر المتوسط خلال القرن العاشر

الميلادي ، فقد كان بحراً إسلامياً ، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود المسلمين » •

حتى أن الأسماء البحرية العربية ، انتقلت الى اللغات الأوربية بعد الفتح الاسلامي لجزر البحر المتوسط • وقد عددتها زيغريد هونكة في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وأوردها « فون كريمر » المؤرخ الألماني في كتابه « الشرق في ظل الخلفاء » ، منها : Cable المأخوذة من « حبل » العربي ، وكلمة Arsenal أو Darsonal المأخوذة من لفظ « دار الصناعة » بالعربية ، وكلمة Admiral المأخوذة من «أمير البحر » ، اللفظ والتعبير العربي ••• وعن المسلمين أخذ الأوربيون أدوات ووسائل الملاحة المتقدمة •

لقد بقي البحر المتوسط بحيرة إسلامية الى حوالي منتصف القرن الحادي عشر للميلاد ، محققاً هدف الفتح فيه ، فحمت قبرص شواطىء سورية ، وحمت كريت شواطىء مصر ، كما حمت صقلية شمال افريقية ، وجزر البليار الاندلس •

ولقد بدأ بالفتح الاسلامي طور جديد في تاريخ حوض المتوسط ، بل في تاريخ الانسانية كلها ، فلم يكن ظهور الاسلام على سواحل المتوسط بالحادث المؤقت ، الذي سرعان ما تنمحي آثاره ، بل على العكس من ذلك ، **كان انبثاق فجر الاسلام ظاهرة دائمة مستمرة ، صحبها تبديل جوهري في الفكر والثقافة لأغلب مواطني بلاد هذا البحر ، وفي كل صقع وصلت اليه الفتوح الاسلامية ، ولم يزل أثر ذلك التغيير يمثل الحقيقة الكبرى ، والظاهرة الجوهرية التي تميز بها هذا الجزء من العالم •**

لما طبعت مذكرات كريستوفر كولومبس ، وجد العلماء فيها وصفاً للأرض بأنها كرة ، ولكن لها شكل الكمثرى ، وكان هذا أمراً مدهشاً عند الأوربيين ، فكيف عرف كولومبس ذلك ؟ أم هي رمية رام بليل ؟!؟

ويجيب كولومبس عن أسئلة المتسائلين ، بأنه عزم على على السفر قاصداً الهند عن طريق المحيط الأطلسي بعد مطالعة كتب ابن رشد . وهذا الكلام ذكره « درابر » في كتابه « تجديد العلوم في الجنوب » وأي جنوب هو ؟ إنه جنوب فرنسة والأندلس ، مركز الاشعاع الفكري والحضاري لأوربة كلها . لقد كانت العلوم العربية الاسلامية لقمة سائغة لكولومبس بالذات، ولأمريكوفيسبوشي وماجلان من بعده . ولا شك أن هذا من نتائج الفتح الاسلامي لحوض المتوسط ، والذي تميز بالسرعة الهائلة ، والانتصارات الرائعة التي حالفته اينما اتجه ، وأهم أسباب ذلك ، السمعة الانسانية الطيبة العطرة ، وطبيعة تعاليمه السمحة ، والحماس الديني الذي بناه الاسلام وثبّته في قلوب جنده المجاهدين الفاتحين . وهذا ما جعل سكان شواطىء المتوسط يرحبون بالفتح، وأصدق دليل على ذلك أن مصير بلاد شاسعة واسعة مترامية الأطراف كانت تقرره معركة واحدة ليس غير ، فمصير بلاد الشام تقرر في اليرموك ، ومصير مصر تقرر في معركة حصن بابليون ، ومصير إسبانيا تقرر في معركة وادي لكّة ، ومصير العراق تقرر في معركة واحدة في القادسية ، ومصير فارس وخراسان تقرر في معركة نهاوند .

ونحن في الصفحات التالية من هذا الجزء ، سنرى جوانب من المجد البحري للمسلمين ، بعد عرض « لكمين باب الشيزري » أو كمين « ممر رونسڤال » .

وهذا المجد البحري جزء من المجد الاسلامي ، هذا المجد الذي سجله العرب بفضل رسالة الاسلام ، وهل من دليل أسطع على قيمة الاسلام في حياة العرب من الحضارة الخالدة التي أثرت وبقيت حيثما انتشر ، وزال فتحهم الحربي العسكري كحادث وقع ، وبقي فتحهم الروحي الحضاري الانساني خالداً خلود الزمن ، وهل ابتغى الاسلام هدفا غير هذا الفتح ؟!

فلولا الاسلام ديناً وهدياً ، والقرآن العظيم دستوراً ومنهجاً ، ورسول الله ﷺ مربياً مزكياً ، لما أصبح البحر المتوسط بحيرة « عربية » إسلامية ، ولما جالت جيوش المسلمين في جزائر البحر المتوسط فاتحة محررة ؟!

نقولها ونعي معناها حق الوعي : **ما سجل التاريخ مجداً وعزاً ، ولا رفع أمة في الدنيا ، كما سجل للعرب بعد اسلامهم ، ورفع ذكرهم .**

فبالاسلام ساد العرب أوطانهم بعد تحريرها .، .. بل سادوا العالم القديم كله ، قلبه وجناحيه ، لا سيادة سلام ، فالسلام حالة بين متخاصمين ، بل سيادة إخاء ورحمة وانسانية ومحبة ، فحيثما حلوا ، حل العلم ، ونبتت الحضارة ، وحل الازدهار ، ونمت مفاهيم العدالة والمساواة والانسانية ، لقد أورقت الأرض من تحت أرجلهم ، وقد رأينا في الجزء الخامس من هذه السلسلة دليلاً غير قابل لنقاش ، وسنرى في هذا الجزء في صقلية دليلاً آخر ، وما أكثر الدلائل ، وما أكثر تنوعها .

ونتساءل في ختام هذا التمهيد إنه إذا أراد العرب اليـوم أن يفتخروا ، فبمن يفتخرون ويباهون ؟ أبأنفسهم وحاضرهم الممزق ؟ أم بعظام أجدادهم الذين ولد بعضهم في الحجـاز ، واستشهدوا في الثغور ، وفي أصقاع سحيقة على حدود الصين ، وفي قلب فرنسة ، وعلى أسوار روما وفيينا ؟.

لقد أحاطت بهم عناية الله سبحانه ، وهي الى الأبد موجودة باقية ترى من هم أهل لهـا ، إنهـا للذين ينصرون الله فيعتنون بأوامره سبحانه وتعالى فهماً وتطبيقاً وتعليماً ، فهو القائل عز وجل : « **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » ، صدق الله العظيم .

★ ★ ★


★ سنرى في هـذا الجزء كمين باب الشيِّزْرِي « ممـر رونْسِفَال » ، ثم لمحات سريعة عن فتح المسلمين لجزائر البحر المتوسط ، يتبعها تفصيل لفتح صِقِلِّيَّة ، ووجيز للثقافة الاسلامية التي فرضت نفسها على صقلية أولاً ، وعلى أوربة كلها ثانياً .

فعلى بركة الله نبـدأ .

★ ★ ★

شوقي أبو خليل
ص.ب : ٦٢٢٢
دمشق ـ سورية

دمشق : ٥ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ .
المـوافق ٤ آذار ١٩٧٩ م .



كَمِينَ بَابِ الشِّيزري

«ممرّ رونسفال»

الفرنجة قبيل باب الشيزري

✶ نظر شارلمان الى أحداث الاندلس بعين التوجس والحذر ، ورأى في قيام الامارة الاموية خطرا دينيا وسياسيا يجب التحوط منه والعمل على درئه ما سنحت الفرص •

عمل ملوك الفرنجة منذ أيام شارل مارتل — وبشكل جدي — على وضع حدٍّ نهائي لعبور المسلمين جبال البرانس ، فقام حاجب القصر الفرنجي « ببين » بن شارل مارتل بانتزاع العرش لنفسه ، فكان أول ملوك الأسرة الكارولنجية ، واستطاع الاستيلاء على القواعد الاسلامية في سبتمانيا ، وأجلى المسلمين عن أراضي غاليا ، وردَّهم الى جنوب البرانس ، وكان ثغر أربونة آخر معقل اسلامي استولى عليه « ببين » عام ٧٦٠ م ، وانتهت بذلك سيادة المسلمين في غاليا •

وفي عام ٧٦٨ م توفي « ببين » وورثه ولده شارلمان « أو كارل الأكبر » ، وغدا يسيطر على مملكة الفرنجة كلها ، من ضفاف نهر الراين ، الى جبال البرانس ، ويعد أكبر ملوك النصرانية في عصره ، وقد غدا فيما بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة •

وعرف شارلمان بصفتين اثنتين :

فهو ذو مقدرة حربية ممتازة •

كما أنه حامي النصرانية الأكبر ، فهو الذي شهر الحرب على القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء نهر الرين ، وأرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً ، فقد حارب السكسونيين ثلاثاً وثلاثين سنة ، كلها عنف وقتال ، حتى أخضعهم وحولهم قسراً الى الديانة المسيحية ، كما تطلب ثماني حملات حسوماً متتابعة حتى هدم الآفاريين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة إنها رفعت شارلمان من عالي الغنى والثروة الى شاهق الفيض والوفرة[1] •

وأنفذ شارلمان بعثات تبشيرية مسلحة لنشر المسيحية بين السكسونيين ، قاومها هؤلاء بقيادة زعيمهم « فيدوكنت »[2] •

كما رغب شارلمان في التدخل في اسبانية بدافع الحماس الديني لحماية المسيحيين فيها ، وبدافع الحلم الامبراطوري الذي يداعبه في تكوين امبراطورية واسعة ، تعيد ذكرى الامبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعاً •

وفي هذه الأثناء ، وخلال هذه الأحداث في أوربة ، انهارت الخلافة الأموية في الشرق عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، واستطاع عبد

---

(١) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، تأليف : هـ٠أ٠ل٠فشر ، طبعة دار المعارف بمصر ، صفحة : ٩١ •

(٢) تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٩٢ •

الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك[1] ان يصل الى شمال افريقية ، ومنها الى الأندلس ، بعد أن مهد له أنصاره ، وموالي أسرته ، سبيل العبور ، واستطاع أن يفوز في « معركة المسارة » ، قرب قرطبة على خصومه ومناوئيه ، وذلك سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦م •

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي واجهها عبد الرحمن الداخل ، والمعارك التي خاضها مع الخارجين عليه في الأندلس ، استطاع اخماد الثورات ، ووطد أركان الدولة بهمة عالية لا تعرف الكلل ، حتى وصفه ابن حيان القرطبي بقوله : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذالعزم، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركـة ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ، ثـم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغاً مفوهاً ، شاعراً محسناً ، سمحاً سخيا ، طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره ، وكان قد أعطي هيبة من وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلي عليها ، ويصلي بالناس اذا كان حاضراً الجمع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعـود المرضى ، ويكثر مباشرة النـاس والمشي بينهم[2] » ••

---

(١) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم « أبو المطرف » ، لقب « بالداخل » لانه أول من دخل الاندلس من بني أمية حاكما ، ولقبه أبو جعفر المنصور بـ « صقر قريش » لبراعته وقوته ، وتوليه الحكم في الاندلس بحزم بعد أن كان هاربا من أيدي العباسيين •

(٢) راجع نفح الطيب : ج : ١ ، ص : ٣٠٦ وما بعدها •

بهذه الصفات ثبت صقر قريش أركان الامارة الأموية في الأندلس ، وأعاد إليها وحدتها .

نظر شارلمان إلى أحداث الأندلس بعين التوجس والحذر ، ورأى في قيام الامارة الأموية خطراً دينياً وسياسياً يجب التحفظ منه والعمل على درئه ما سنحت الفرص ، فتذرع بحق العباسيين[1] في اسبانية ، وسنحت له الفرصة حين هرب من الأندلس بعض الموتورين ، الذين وصفوا بما يلي : « صغرت نفوسهم ، فأصبحوا لا يهمهم إلا تحقيق مصلحتهم الشخصية[2] » . ورأى شارلمان ان في حوادث الحرب الأهلية التي قام بها بعض الانفصاليين عن السلطة المركزية في قرطبة ، فرصة طيبة للتدخل والعمل ، رأى فرصته المنشودة سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م عندما ثار سليمان بن يقظان الكلبي والي برشلونة وجيراندا ، والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة ، فحاول استثمارها .

* * *

(١) عاصر شارلمان ستة من خلفاء بني العباس هم : المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ /٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) والمهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م) والهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م) والرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) ، والامين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ / ٨٠٩ ـ ٨١٣ م) وأوائل عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ / ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) .

(٢) القول للاستاذ المرحوم الثبت العبادي ، عن تاريخ الاندلس ، ص : ٢١٨ وما بعدها .

المتآمرون

★ « يا حبـــذا الامـــارة
ولو عـــلى الحجـــارة » •

تحالف على مواجهة صقر قريش وخلعه كل من سليمان بن يقظان حاكم برشلونة وجيرندا والحسين بن يحيى الأنصـاري حاكم سرقسطة ، واستغلا انشغال صقر قريش في قمع الثـورة في جنوبي الاندلس ، مستغلين طبيعة شمال اسبانية الجبليـة ، وصعوبة اقتحامها •

أرسل صقر قريش جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي ، ودعا العصاة الى الطاعة ولزوم الجماعة ، قائلا : « لتمدن يداً الى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بنانها عن رصف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد[1] » •

وقاتل ثعلبة الانفصاليين قتالاً شديداً ، وفي بعض الأيام عاد الى خيمته ، فاغتنم سليمان فرصة راحة جند ثعلبة ، فكر على خيمته وقبض عليه ، وتفرق عسكر ثعلبة ، وهكذا فشل ثعلبة في انهاء عصيان الثوار ، وأسر •

---

(١) نفح الطيب ــ وابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ١٢٢ •

وهكذا استفحل أمر الثورة ، مع يقين سليمان بن يقظان أن هذا النصر مؤقت ، لما يعلمه من عزم صقر قريش وبأسه وعزمه ، وروعة انتقامه ، فسار ابن يقظان ومعه أبو ثور صاحب وشقة ، توجّها الى بادربورن في سكسونيا سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م[١] .

وأياً كانت البواعث التي جعلت المتآمرين على اتصال بشارلمان فإن الدعوة جاءته في الوقت المناسب ، حين انتهى من اخضاع السكسون في شمال ألمانية ، ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه الى تحقيق أحلامه الامبراطورية .

ويمكننا القول إن غاية استدعاء شارلمان هو انفصال الثائرين عن الحكومة المركزية في قرطبة أولا ، ومن ثم تحقيق الخطوة الأهم وهي السعي للقضاء على صقر قريش .

ويمكننا التأكيد أن تلبية شارلمان لطلب الثائرين لم يكن حباً لهم ، بل كان هدفه الحاق اسبانية المسلمة بالامبراطورية الكارولنجية ، وريثة الأسرة الميروفنجية .

ويضاف الى المتآمرين أبو الأسود بن يوسف الفهري ، فقد خرج على صقر قريش ، ولكنه فشل في ثورته ، إذ تمكن صقر قريش من القبض عليه وسجنه[٢] ، لكن أبا الأسود فر من سجنه بعد أن أصابه العمى .

---

(١) والمعروف عن سليمان بن يقظان ـ ويسمى أيضا في بعض الروايات بابن الاعرابي أو العربي ـ أنه حالف من قبل (بيبن) القصير أبا شارلمان .

(٢) وكان صقر قريش قد قضى على أبيه يوسف الفهري والي الاندلس من قبل.

كان لقاء المتآمرين وشارلمان في ربيع عام ٧٧٧ م في بلاطه في مدينة بادربورن شمال غربي ألمانيا « أي في سكسونيا »[١] ، بعد عودته من حروبه المظفرة مع السكسونيين ، الذين عمل بجد على تنظيم تنصيرهم .

وحرض سليمان شارلمان على غزو الاندلس ، وعرض عليه محالفته ، وتعهد بأن يسلمه بعض المدن ، كمدينة سرقسطة وبرشلونة . وكانت الخطة التي دبرها شارلمان مع المتآمرين هي أن يعبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري[٢] الى افريقية ، حيث يعد جيشاً ويعود به لينزل في مقاطعة تدمير ، ويقوم سليمان بن يقظان أمير برشلونة بتمهيد الطريق أمام جيوش الفرنجة الى سرقسطة .

ولبى شارلمان ملك الفرنجة دعوة الثوار الخارجين على سيادة صقر قريش ، ورمى بذلك الى تحطيم سيادة إمارة قرطبة ، وبالتالي هدف شارلمان الى تحطيم اسبانية المسلمة باذكاء روح التفرق فيها ، أما الثوار فكان أملهم الاستقلال بما في أيديهم حينئذ ، وبما سيغنمونه بعد استنجادهم بشارلمان ، قابلين حماية ملك الفرنجة .

وهكذا .. بينما كانت دولة الفرنجة تنعم بجمع كلمتها ، وتوطد دعائمها وبانتصاراتها على القبائل السكسونية فيما وراء

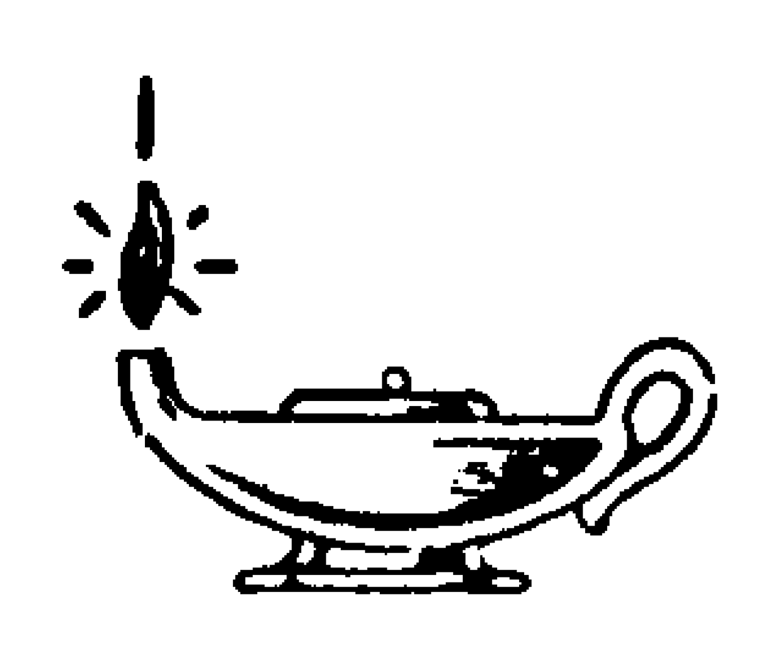
(١) وفي « تاريخ غزوات العرب » لارسلان ، كان اللقاء في وستفاليا Westphalie ، التي هي مقاطعة بروسية ، ألمانيا حاليا . راجع ، ص : ١٢٠ من الكتاب المذكور .

(٢) عرف عبد الرحمن بن حبيب الفهري بـ « الصقلبي » وذلك لطوله وشقاره .

الرين ، كانت دولة المسلمين في الأندلس مشغولة بقمع الثورة هنا وهناك ، وروح الخلاف يمزقها ، ومصيرها يهتز بيد الأقدار[1] .

وسارت المؤامرة في طريقها المرسوم ، غير أن تحديد الوقت في ذلك الزمان ، لم يكن من الدقة بحيث توجه الضربة في وقتها المحدد المقدر ، ويرجع ذلك الى صعوبة المواصلات ، وبطء الاتصال[2] .

فقد عاد عبد الرحمن بن حبيب الفهري الى الأندلس بالجيش الذي جمعه من افريقية ، ونزل في تدمير ، فنهض اليه صقر قريش وقضى عليه ، ولم يستطع أحد من المتآمرين أن ينجده ، معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يبرحوا أماكنهم حتى تصل جيوش شارلمان .



(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ط : ٤ ، صفحة : ٧٣ وما بعدها .

(٢) « المسلمون في أوربة » ، صفحة : ١٢٩ .

اسبانيا المسلمة و شارلمان

✶ تدرع شارلمان بحق العباسيين في اسبانيا ، وسنحت له الفرصة حين لجا اليه ابن يقظان •

استطاع شارلمان بحلفه الجديد مع المتآمرين أن يأخذ مظهر حماية النصرانية من خطر الوثنية المتدفق من المشرق على يـد القبائل السكسونية وزعيمها القوي « فيدوكنت » ، وحمايـة النصرانية من وثبات الاسلام المتدفق من الجنوب • ولقد أراد رد المسلمين الى ما وراء البرانس جنوباً ، والسعي لمحاربة الاسلام في اسبانية ، ولو في مقاطعاتها الشمالية على الأقل ، لتكون معقلاً بيد الفرنجة لدرء فورات الاسلام ووثباته •

ولهذا فقد جهز شارلمان جيشاً ضخماً ، قصد به مهاجمة قرطبة ذاتها ، للسيطرة على نصف اسبانية الشمالي على الاقل ، فأرسل الى البابا « هادريان » يعلمه بأمر هذه الحملة ، فوعده باقامـة الصلوات لكي يعود ظافراً الى مملكته[1] •

وفي مطلع ربيع سنة ٧٧٨ م حشد قواته المؤلفة من فرنجـة

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٧٤ •

نوستريا ، ومن الجرمان واللوبنارد ، وجنود بريتانيا واكويتن •

وتقـدم جيش الفرنجـة إلى مملكة ناڤار المسيحية[1] ، وعاصمتها « بنبلونة » ، وهي كغيرها من القبائل والمدن المسيحية المنتشرة في تلك المناطق النائية من شمال اسبانية ، لم تقدم المساعدة المنتظرة لشارلمان ، ونفرت من أن يتحكم فيها الفرنجة ، لذلك اضطر شارلمان الى حصار العاصمة « بنبلونة » ولم يفتحها إلا بعد قتال شهرين[2] ، ثم قسَّم جيشه الى قسمين ، توجـه بهما الى اسبانية فعبر أحدهما جبال البرانس من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثاني بقيادة شارلمان نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الروماني القديم ، فوق آكام « جان دي لابور » الشاهقة التي تشرف على مفاوز رونسڤال الوعرة ، على أن يلتقي الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة ، حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المتآمرين •

ومما يذكر أن سليمان بن يقظان « ابن الأعرابي » ، كان منذ مقدم شارلمان الى بنبلونة يتردد اليها لمفاوضته ، ووفقاً لتعهداته فقد سلمه الرهائن وفي مقدمتها ثعلبة بن عبيد الجذامي قائـد صقر قريش الأسير •

سار شارلمان ومعه سليمان الى سرقسطة[3] ، ليلتقي بجيشه

---

(١) تسمى مملكة نافار أيضا : « بلاد البشكنس » •

(٢) غزوات العـرب ، ص : ١٢١ ، والحلل السندسية ، ج : ٢ ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢ •

(٣) الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ، ص : ٥ •

الثاني ، وليلتقي هناك بحلفائه المتآمرين ، ويستولي على المدينة الكبرى •

ولكن الحوادث كانت قد تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين المتآمرين ، فالحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة ، وحليف سليمان منذ البداية ، ومؤيده في مشروعه لاستدعاء الفرنجة ، كان قد وافق على الحلف الذي عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التي قطعها له ، ولكنه مالبث أن نقم على حليفه سليمان بن يقظان، واعتصم داخل سرقسطة • فلِمَ هذا التغيُّر المفاجىء في موقف الحسين بن يحيى ؟

في رأينا حصل هذا التغير المفاجىء نتيجة لما يلي :

١ً ـ موقف الصدارة والزعامة الذي استأثر به سليمان تجاه الفرنجة مما أثار الغيرة والحسد في نفس الحسين بن يحيى •

٢ً ـ لعل الحسين بن يحيى قد خشي عاقبة التورط في حلف مع الفرنجة أعداء الاسلام ، فعدل عن موقفه من سليمان بن يقظان وشارلمان في آخر لحظة •

٣ً ـ لقد كان هدف المتآمرين أنفسهم أن يساعدهم شارلمان على الاستقلال بالولايات الشمالية في اسبانية المسلمة ، ولعلهم لمسوا منه نواياه في استغلال روح الخلاف التي كانت تمزق المسلمين في الأندلس ، وأن غايته اسقاط حكومة قرطبة الأموية متذرعاً بحق العباسيين في اسبانية ، وكأنه الوصي المسؤول عن احقاق الحق في الأندلس !

٤ً ـ لم تؤد خيانة سليمان الى ما يصبو إليه الحسين بن يحيى ، إذ كان الحسين بن يحيى يصارع منافساً على زعامة الفئة المناصرة للعباسيين في الأندلس .

٥ً ـ ولـم يستطع الحسين بن يحيى ـ ولا سليمان بن يقظان ـ أن يتغلبا على نفور المسلمين من قبول دخول ملك الفرنجة شارلمان مدينتهم ، فخشي من ثورة داخل الأسوار .

وهكذا .. فوجىء شارلمان في سرقسطة بأن صاحب الأمر فيها هو الحسين بن يحيى الأنصاري ، وعلى الرغم من أنـه من الخارجين على صقر قريش ، غير أنـه اعتصم داخـل المدينـة وتحصَّن فيها .

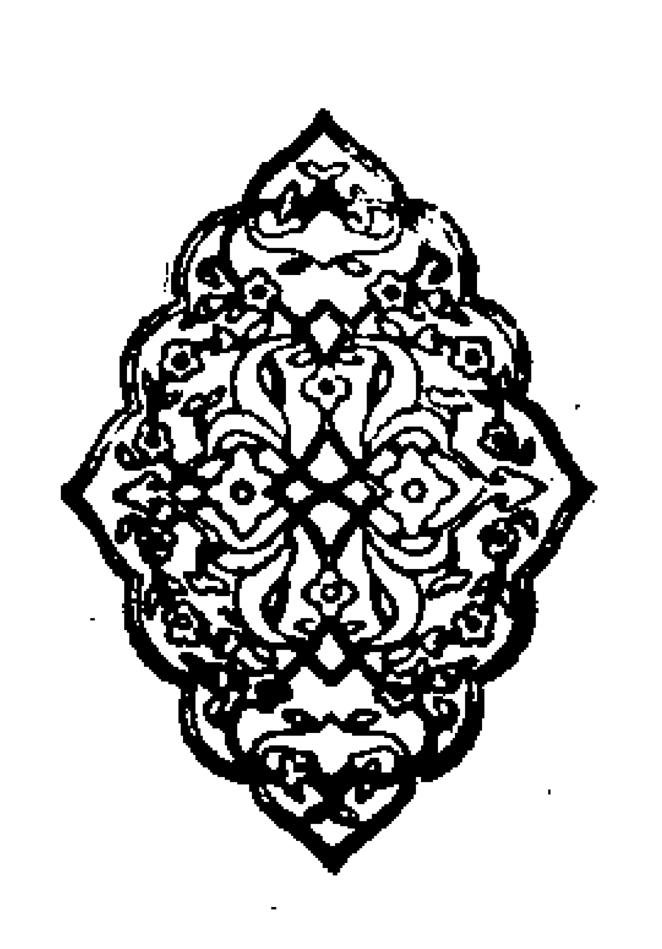
« فلما أشرف شارلمان ومعه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينـة المحصَّنة متأهبـة للدفاع والمقاومة ، ولم يستطع سليمان أن يفعل شيئاً لاقناع الحسين بفتح أبواب المدينة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها فقد دافع عنها الحسين بن يحيى دفاع الأبطال ، وردت المدينـة المحاصرة كل هجماته بشدة »(١) .

وعجز سليمان بن يقظان عن أن يحقق شيئاً من وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . فامتنعت سرقسطة على شارلمان وامتنعت المدن الاخرى أيضاً ، ولما يئس شارلمان من

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة : ٧٧ ، عن : أخبار مجموعة ، صفحة : ١١٣ .

افتتاحها ، تركها وسار الى وشقة ـ وصاحبها حينئذ أبو ثور ـ ثم الى برشلونة وجيروتا • ولم يشأ ملك الفرنجة أن يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من ناحية أخرى في نية سليمان وموقفه ، وبخاصة عندما ترامى الى مسامعه آن صقر قريش خفّ لنجدة المدينة المحاصرة بشكل خاص ، والمنطقة كلها بشكل عام،فقبض على سليمان بن يقظان[١]، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة ، وكان ذلك في شوال سنة ١٦١ هـ / تموز (يوليه) سنة ٧٧٨ م •



(١) الكامل في التاريخ ، جـ : ٦ ، ص : ٥ •

المعركة

كمين باب الشيزري «ممر رونسفال»

★ في ذي القعدة ١٦١ هـ ، ١٨ آب « اغسطس » ٧٧٨ م . كانت « المأساة الكبرى » !.

فشل مشروع شارلمان في اسبانية المسلمة ، فاضطر الى الانسحاب منها يجر أذيال الخيبة وضياع الأمل، وتحطم الأهداف.

فقد ارتد على رأس قواته مجتمعة ، ومعه أسيره (حليفه السابق) سليمان بن يقظان وعدد من الرهائن ، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس ، وكان الناقاريون ـ سكان هذه البلاد ـ قد جمعوا فلولهم بعد سقوط عاصمتهم « بنبلونة » ، واعتزموا الدفاع عن بلادهم وعن عاصمتهم بعد أن شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين بن يحيى ضد الملك الفرنجي ، وانضم اليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة للتعاون في دفع العدو المشترك ، ولكن شارلمان هاجم « بنبلونة » بشدة ، ولم تجد بسالة الناقاريين البشكنس وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء ، واستولى شارلمان على بنبلونة مرة ثانية[١] ،

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة : ٧٧ .

ولكنه عجز عن الاحتفاظ بها كنقطة ارتكاز له فيما وراء البرانس، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا تعود الى المقاومة ، وحتى يمهد لجيشه طريق العود المأمون الى فرنسة •

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً الى جبال البرانس ، من طريق هضاب رونسفال المؤدّية الى باب الشّيزري[1] ، أحد ممرات البرانس ، فما الذي حدث عندئذ ؟!؟

★ ★ ★

لقد سار شارلمان بعد تخريب بنبلونة متجهاً صوب البرانس ليعبرها عائدا الى فرنسة ، وكان عبوره من الطريق نفسها التي أتى منها من مفاوز رونسفال ، أو باب الشّيزري ، أو باب شيزروا ، في طرف جبال البرانس الغربية ، شمال شرقي بنبلونة •

وعلى مقربة من « بنبلونة » ، في ممر من الممرات العديدة ، التي كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرانس من الشمال الى الجنوب ، وهي الممرات والأبواب نفسها التي كان يستعملها العرب للعبور الى غالية ، والعودة منها • كانت المفاجأة !!

---

(١) ممر رونسفال : Roncevalles ، أو باب الشيزري أو باب شيزروا ، وهذه تسمية الشريف الادريسي ، وهي مشتقة من الاسم الروماني : Portus Ciserei

ـ وفي تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط للامير شكيب أرسلان ، وادي « رونسفو » Roncevaux • راجع ص : ١٢٢ ، طبعة البابي الحلبي بمصر •

ففي مفاوز رونسڤال الوعرة ، وتجاه ممر البرانس المسمى باب الشيزري وقعت المفاجأة الهائلة[1] ، ذلك أن الجيش الفرنجي ماكاد يبدأ عبور الجبال حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى وفيهم سليمان بن يقظان ، باستثناء ثعلبة بن عبيد قائد صقر قريش ، الذي لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسة .

وتعاون البشكنس مع المسلمين في هجومهم على شارلمان ، لأنهم كانوا يتوقون الى الانتقام منه لما أوقع في بلادهم من العبث والتخريب ، ولكن الدور الرئيسي كان للمسلمين كما كانت لهم القيادة .

إن كمين رونسڤال كان بتدبير صقر قريش ، فقد أمد المسلمين في تلك المناطق وجيرانهم البشكنس بالسلاح وبالرجال ، حتى قدر عدد المسلمين بثلاثين ألف مجاهد ، من بين جند صقر قريش والمتطوعة المجاهدين .

كان الممر ضيقاً مظلماً لتكاثف الغابات في وسط الجبال ، مما ساعد على نجاح الكمين ، وتحقيق هدفه كاملاً .

وكان يقود المؤخرة ثلاثة من أبرز قادة شارلمان وهم : السنجال إجنهارد ، وأنسلم كونت مقاطعة بلاتين ، ورولاند حاكم بريتاني[2] .

---

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » صفحة : ٧٩ .

(٢) بريتاني : مقاطعة تقع شمال غرب فرنسة على الاطلسي .

وانقضَّ المسلمون والبشكنس بمساعدة معونات صقر قريش على المؤخرة ، وتقدر بنصف جيش شارلمان ، وأبادوها عن آخرها في ١٥ آب « أغسطس » ٧٧٨ م ، وكان بين المؤخرة ومقدمة الجيش حيث شارلمان ثمانية أميال . ولفداحة الخطب سُمِّي كمين رونسڤال في كتب الأوربيين « المأساة الكبرى[1] » .

تقول احدى الروايات اللاتينية عن تعاون المسلمين والبشكنس في هذا الهجوم :

« إن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوي الأسلحة الثقيلة ، وعدد مماثل من المشاة ، وان المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وان الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد ، وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ، ولا سيما مطروح وعيشون ولدي ابن الأعرابي (سليمان بن يقظان) ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا في حاجة الى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد ، وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة الى مقدرة المسلمين العسكرية ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف ، التي ارتجت لها سائر اسبانية[2] » .

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن

(١) المسلمون في أوربة . ص : ١٣٤ .

(٢) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٧١ وما بعدها .

تصورها ، ذلك أن الفرنجة لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة ، وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة ، وفي مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن وفي مقدمتهم سليمان ، ومزّقت المؤخرة نفسها شر ممزق ، وهلك خلال المعمعة الهائلة عدد كبير من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأي عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة ، وكانت نكبة مروعة لبث صداهـا يتردد مدى عصور بين أمم الغرب والنصرانية[1] .

ومما يلفت النظر في حوادث هذا الكمين ، أو هذه الموقعة ، أن شارلمان لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ، ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك الفئات التي تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أوالبشكنس، وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنجة وأخطرهم ، فتابع انسحابه من الممر مسرعاً ، ليخوض معهم حرباً جديدة ، استطالت زهاء سبع سنين[2] .



(١و٢) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام « بتصرف » ، صفحة : ٨٢ .

نتائج باب الشيزري

★ لم يفلح شارلمان في هدم الشكيمة العربية في اسبانية المسلمة على الرغم من تفرق كلمتها .

وهكذا عاد شارلمان من اسبانية يجر أذيال الخيبة ، والمأساة الكبرى . فاختتمت محاولته لغزو اسبانية المسلمة والتدخل في شؤونها ، بنكبته ، وبالقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبغت هذه النكبة سحابة قاتمة على مجده الحربي ردحاً من الزمن ، ولو قيض لشارلمان أن يفتتح سرقسطة ، وقواعد الثغر الأعلى لمهد له سبيل الزحف الى الجنوب ، ولتعرضت حياة الأندلس المسلمة لخطر محقق .

ولكن الله سبحانه وتعالى شاء أن يقضي على محاولته على يد جيش من المسلمين المغامرين البواسل ، الذين أيدهم وأمدهم صقر قريش .

بيد أن هذه المحاولة لم تكن آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنجة ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة

المؤلمة ترقب سير الأحداث في الأندلس ، لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها ، وقد سنحت بعد ذلك أكثر من فرصة انتهزها شارلمان للتدخل في شؤون اسبانية المسلمة ، وغزو أراضيها •• ولكنها باءت كلها بالفشل •

كان لكمين رونسفال « باب الشّيزري » من الخطورة البالغة على الفرنجة ماله ، فإن الآثار الهائلة التي أحدثها تمزيق جيش شارلمان داخل مملكته ، وفي سائر الأمم التي حكمها شارلمان، أو كانت له صلة بها ، ولا سيما القبائل السكسونية[١] •• أنزلت شارلمان من عليائه ، وجعلت هيبته تنحدر سريعاً في نفوس القريب والبعيد ، الصديق والعدو •• وبخاصة في نفوس القبائل السكسونية ، فقامت بثورات أضعفت شارلمان •

* * *

★ **أهمية الكمين على المدى البعيد :**

١ً — حربياً : مأساة وخسارة حربية سُجّلت عند الأوربيين في انشودة رولان[٢] : Chanson de Roland ، التي جانبت

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، صفحة ٨٢ بتصرف •

(٢) كتبت ملحمة في القرن الحادي عشر الميلادي باسم « انشودة رولاند » ، وهي من نوع الملاحم أو أغاني البطولة التي تدور حول الاعمال الكبيرة التي ارتبطت بشخصيات بارزة ، كتب هذه الملحمة الشاعر النورماني « تيرولد » • وبعد أن تصف الملحمة المجتمع والتفكير الفرنسي صورت كيف انتهت حياة رولاند • ولقد طغت عليها الصفة الاسطورية وتمجيد شارلمان (دون سند من الواقع التاريخي) • ومن أخطائها التاريخية قولها : ان شارلمان مكث في اسبانية سبع سنوات لاخضاعها ، وقولها : دانت لشارلمان جميع اسبانية ماعدا سرقسطة !!

الحقيقة كثيراً ، في معظم تفاصيلها وأحداثها • وهنـا يظهر جلياً تزوير التاريخ ، فهزيمة شارلمان في ممر رونسڤال بجبال البرانس هي الهزيمة الوحيدة في تاريخ شارلمان كما يدعون ، ولكنهـا أسبلت عليه من ساطع المجد مالم تستطعه الانتصارات الكثيرة ، بفضل الخيال القصصي الذي أضفى على حملته الحربية في وادي نهر الإيبرو ، شمال مدينة برشلونة هالة مـن هالات الحروب الصليبية ، ونسجت حول اسم قائده رولان الذي خرَّ قتيلا في كمين ممر رونسڤال ، ما لا حصر له من أكاليل الشعر والأغـاني مجداً وبطولة وتخليداً •

٢ً ــ سياسياً : بُدِّد حلم شارلمان في ازالـة السـيادة الاسلامية عن إسبانية ، وتكوين امبراطورية على النسق الروماني، تعيد ذكرى تلك الامبراطورية المترامية الأطراف •

٣ً ــ معنوياً : انهـارت سـمعة شارلمان عنـد اعـدائه السكسونيين ، وقويت روح المسلمين المعنوية ، فقام المسلمون بغارة سريعة خاطفة على أكويتانيا عام ٧٨٥ م ، وسار صقر قريش نحو سرقسطة ، وقبل وصوله اليها كان سليمان بن يقظان الكلبي « ابن الأعرابي » ، قد قتل على يد الحسين بن يحيى الأنصاري الذي اعتقد أن سليمان متهم في دينه وولائه ، وأعلن الحسـين خضوعه وطاعته وولاءه لصقر قريش[١] •

---

(١) ولما خرج عليه بعد ذلك ، انتهى أمره بالقتل ، كما ورد في بعض الروايات، راجع « المسلمون في أوربة » •

ومع انتصار صقر قريش ورجحان كفته ، رأى ، كما رأى شارلمان، أن من حسن السياسة، إقامة العلاقات الودية، بعد أن خبر كل منهما قوة خصمه وامكاناته ، فلم يسع شارلمان إلا أن يستجيب الى السلم مع صقر قريش[1] ، وأن يبعد عن نفسه ذلك الحلم الامبراطوري في فتح اسبانية ، وتمت المعاهدة والمسالمة ، وبذلك يكون شارلمان بطل النصرانية وحاميها الأكبر في فرنسا ، وفيما وراء نهر الرين حيث القبائل السكسونية التي أرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً ، لابطلها في وجه اسبانية المسلمة وراعيها الأموي صقر قريش .

* * *

★ توفي صقر قريش سنة ١٧٢ هـ في شهر ربيع الأول ، تشرين الأول « اكتوبر » ٧٨٨ م ، فخلفه ابنه هشام « ١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م » ، الذي نجح خلال ولايته لماردة زمن أبيه ، في تقليم أظفار الامارات المسيحية في جليقية ، وليون ، وناڤار ، إذ كان كثير الغزو لها[2] .

وتصفه المراجع بأنه شاب كفء متحمس للدين ، وبمنزلة عمر بن عبد العزيز في سيرته أثناء حكمه في الأندلس ، فقد كان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ،

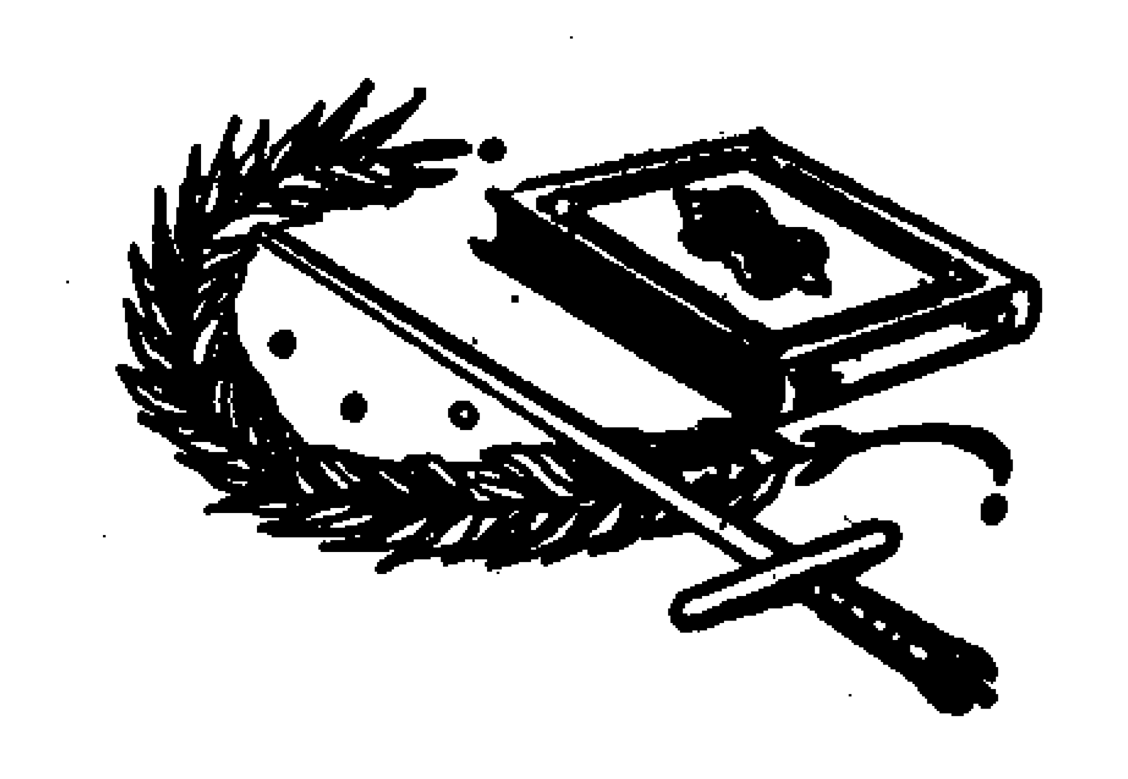
---


(١) في هذه الاثناء طلب صقر قريش ثعلبة بن عبيد من الفرنجة ، فاطلق سراحه، وعاد الى الاندلس . « راجع الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ، ص : ٦٣ — ٦٤ » .

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٣١٦ .

ويخبرونه بحقائقها ، فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع بـه وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعـالى أن يزين موسمنا بمثل هذا .

لقد سار هشام بنفسه الى جليقية لمحاربة ثوارها ، فهزمهم وشتت شملهم . وسير جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبـد الواحد بن مغيث الى قطالونيا ، ودخل عبد الملك فرنسة عـام ١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ، ووصل الى أربونة ، وسار الى قرقشونة ، فانبرى اليه وليـام دوق طولوشة ، وعلى ضفاف نهر انبيو بين قرقشونة وأربونة ، كانت المعركة حيث انتصر المسلمون ، وأصيب الفرنجة بخسائر فادحة . وذكر صاحب « نفح الطيب » أن عبـد الملك بن عبد الواحد وصل الى الزاوية الشمالية الغربية من فرنسة « أي الى أرض بريتانية » .





فتح
جزر المتوسط

"البحر المتوسط بحيرة إسلامية"

جزر البحر المتوسط

✶ قبرص ، رودس ، كريت ، مالطة ، قوصرة ، سردينيا ، كورسيكا ، البليار ، صقلية .

أ- قبرص :

كتب معاوية بن أبي سفيان ـ والي الشام ـ الى الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأذنه في غزو البحر أكثر من مرة ، فأجابه عثمان الى ذلك ، وكتب اليه : لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ، ففعل معاوية ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري[1] .

واتجه الأسطول الاسلامي عام ٢٨ للهجرة نحو قبرص ، وهي الجزيرة الهامة لموقعها في البحر المتوسط ، فهي المحطة البحرية الاستراتيجية للتجارة والملاحة . كما أن موقعها هام لحماية فتوح المسلمين في بلاد الشام وافريقية .

---

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٣ ، ص : ٤٨ .

اتجه الاسطول الاسلامي من سواحل بلاد الشام بقيادة عبد الله بن قيس الى قبرص ، وسار اليها أيضا أسطول اسلامي آخر من مصر بقيادة عبد الله بن سعد • فانتزعها المسلمون عام ٢٨هـ من البيزنطيين وامبراطورهم يومئذ قنسطانس الثاني « ٦٤١ — ٦٦٨ م » •

وقد صالح أهل قبرص المسلمين على :

١ ــ ألا يقوموا بغزو المسلمين •

٢ ــ وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم •

٣ ــ مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة •

٤ ــ وأن يختار المسلمون بطريق قبرص[1] •

قال جبير بن نفير : ولما فتحت قبرص ، وأخذ منها السبي ، نظرت الى أبي الدرداء[2] يبكي ، فقلت : مايبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله ، وأذل الكفر وأهله ؟! قال : فضرب منكبي بيده وقال : ثكلتك أمك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره ، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك ، إذ تركوا أمر الله فصاروا الى ماترى ، فسلّط عليهم السباء ، واذا سلط السباء على قوم فليس له فيهم حاجة •

---

(١) والهدف من هذا فصل الكنيسة القبرصية عن الكنيسة البيزنطية ، بتعيين بطريرك لا يكون معاديا للمسلمين مع عدم التدخل في الشؤون الكنسية • « راجع : الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بسام العسلي ، ص : ٢٩٢ » •

(٢) واسمه عويمر .

وفي هذه الغزوة توفيت أمّ حَرَام[1] بنت ملحان الأنصارية ..

تحقيقاً لنبوءة رسول الله ﷺ . وهي أنه : نام رسول الله ﷺ في بيتها ، فاستيقظ وهو يضحك ، وقال : عرض علي ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة ، قالت أم حرام : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال ﷺ : إنك منهم ، ثم نام فاستيقظ وهو يضحك ، فقالت أم حرام : يا رسول الله ، مايضحكك ؟ فقال : عرض علي ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة ، قالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، قال ﷺ : أنت من الأولين .

وقد صحبها زوجها عبادة بن الصامت في غزو قبرص ، فلما جاز البحر بها ركبت دابة فصرعتها فقتلتها[2] ، ودفنت هناك ، وقبرها يزار حتى يومنا هذا .

نتائج فتح قبرص :

١ ــ تهديم جدار الوهم عند المسلمين بركوب البحر ، وبدء الصراع بين المسلمين والروم فيه .

٢ ــ تأمين حدود بلاد الشام ومصر بجعل قبرص قاعدة انذار متقدمة .

---

(١) أم حرام بنت ملحان .. الانصارية الخزرجية ، واسمها الرميصاء ، أو الغميصاء ، وهي زوجة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ، وكان رسول الله ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها ، ويقيل عندها ، وأم حرام خالة أنس بن مالك . « أسد الغابة ، جـ : ٧ ، ص : ٣١٧ » .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣١٨/٨ ، ومسند الامام احمد بن حنبل : ٤٢٣/٦ .

٣ ــ وجه الاسطول البيزنطي ثقله الى غرب البحر المتوسط، حيث كانت الفتوحات الاسلامية لا تزال بعيدة عن الوصول الى هناك[١] •

« وتبقى الظاهرة الاكثر أهمية في تنائج معركة قبرص ، هي تطوير الاعمال البحرية بتنسيق تام مع الاعمال البرية ، وتظهر متابعة الاستيلاء على جزر البحر الابيض المتوسط (صقلية ــ كريت ــ الباليئار) أنها كانت متوافقة مع التحرك البري ، فكانت الجزر هي هامش الحيطة البحري للدفاع عن الأقاليم التي يفتحها المسلمون في المغرب الاسلامي[٢] » •

تكررت الغزوات على قبرص في الأعوام : ١٣٠ ، ١٥٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ هـ[٣] • وقبيل البدء بالحركة الصليبية وجه ملك القسطنطينية « نقفور » أسطولا الى قبرص عام ٩٦٥ م ، فاحتلها فأصبحت سنداً بالغ الأهمية للصليبيين • وبعد استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي اتجه ريتشارد قلب الاسد الى قبرص ، وجعلها قاعدة له عام : ١١٩١ م ، وفي عام : ١١٩٨ م أصبحت مملكة ، وأصبح ملكها موجّهاً للمغول للقضاء على المسلمين ، وأصبحت عام : ١٢٤٨ م قاعدة للملك لويس التاسع عند غزوة مصر •

---

(١) الايام الحاسمة في الحروب الصليبية ، بسام العسلي ، صفحة : ٢٩٤ •
(٢) المرجع السابق : صفحة : ٢٩٦ •
(٣) وهي الاعوام : ٧٤٧ ، ٧٧٥ ، ٧٩٠ ، ٨٠٧ م •

وفي عام ١٢٦٣ وحد ملك قبرص « هيو » قبرص وعكا التي كانت ما تزال بيد الصليبيين ، فأصبح مسؤولا عن حماية عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق .

وفي عام ١٢٩١ م حرر المسلمون عكا ، واضحت قبرص بعدها مركز تهديد للشواطىء الاسلامية . لذلك كان الملك الأشرف خليل ــ محرر عكا ــ ينادي دوما : قبرص .. قبرص .. قبرص. غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه .

ولما أخذ العثمانيون على عاتقهم حماية العالم الاسلامي ، فتحوا قبرص عام ١٥٧٣ م ، ثم احتلها البريطانيون عام : ١٨٧٨م. ثم أصبحت مستقلة عام : ١٩٤٥ م.

* * *

٢ـ رُودس :

قال البلاذري في « فتوح البلدان »[١] : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزي براً وبحراً ، فبعث جنادة بن أبي أمية الأزدي الى رودس (وجنادة أحد من روي عنه الحديث ، ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ، ومات في سنة ثمانين للهجرة) ففتحها عنوة ، وكانت غيضة في البحر ، وأمره معاوية فأنزلها قوما من المسلمين، وكان ذلك في سنة اثنتين وخمسين .

(١) فتوح البلدان ، ص : ٢٣٧ .

أقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذ لهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن والرجوع[1] •

ولما كان مسلمة بن عبد الملك في طريقه الى القسطنطينية عام ٧١٧ م ، فتح رودس ثانية ، وبعد فشل حصار القسطنطينية افلتت الجزيرة من يد المسلمين •

وفي مطلع القرن التاسع الميلادي حاول الخليفة المسلم هارون الرشيد فتح رودس ، ولكنها بقيت تابعة لبيزنطة حتى استولى عليها فرسان الاسبتارية الصليبيون عام : ١٣٠٨ م • وخلال سيادة الفرسان الاسبتارية عليها جاءت محاولة للسلاطين المماليك في مصر زمن السلطان جتمق (٨٤٢ ــ ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ ــ ١٤٥٣ م) ، ولكنها لم تنجح • ومن ثم ظلت رودس خاضعة للاسبتارية حتى انتزعها العثمانيون عام ١٥٢٢ م •

* * *

٣ ـ أَقْرِيطِش «كريت» :

في عام ٥٥ هـ / ٦٧٣ م غزا جُنَادة بن أبي أمية أقريطش[2] « كريت » ، ففتح أجزاء منها ، وفي زمن الوليد بن عبد الملك

---

(١) كان معاوية يعاقب بين الناس فيها ، وكان فيها مجاهد مقيما يقرىء الناس القرآن الكريم ، وسار مجاهد مع جنادة بن أبي أمية سنة ٥٤ هـ وفتحا « أرواد » وأسكنها معاوية المسلمين ، وأرواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية ، غير أروادالشام•

(٢) راجع لضبط الشكل « معجم البلدان » ج : ١ ، ص : ٢٣٦ ، «أقريطش» •

فتحت أجزاء أخرى ، وفي زمن هارون الرشيد تم فتح الجزء الاكبر منها بقيادة حميد بن معيوف الهمداني • ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي ــ المعروف بالاقريطشي ــ وافتتح منها حصنا واحدا ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئا بعد شيء حتى لم يعد فيها من الروم أحد •

فمن هو أبو حفص هذا ؟ وكيف وصل الى أقريطش ؟ وكيف تم له فتحها وحكمها ؟

جاء في تاريخ ابن خلدون[1] :

في زمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل « ١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ــ ٨٢٣ م » ، قامت ثورة في قرطبة سميت ثورة الربض ، وسببها انهماك الحكم في صدر حكمه في لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع مثل يحيى بن يحيى الليثي ــ الذي روى عن مالك موطأه ــ وطالوت الفقيه وغيرهما •• فثاروا به ، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة ، وذلك عام ١٩٠ هـ ، فقاتلهم الحكم بن هشام فغلبهم وافترقوا ، وهدم دورهم ، ولحقوا بفاس من أرض العدوة « في المغرب » ، ولحق قسم منهم بالاسكندرية ، برئاسة أبي حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطي[2] • وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم الأقريطشي ، وبلغ عدد هؤلاء المهاجرين الى

---

(١) ابن خلدون ، العبر •• ج : ٣ ، ص : ١٢٦
والكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١١٩ و ١٧٢ •
(٢) نسبة الى أرض « البلوط » قرب قرطبة •

الاسكندرية خمسة عشر ألف رجل غير النساء والاطفال، فاستولوا على الاسكندرية ، حيث كانت مصر كلها مضطربة بسبب الفتنة بين الأمين والمأمون .

ولما استقر الأمر في بغداد للمأمون أرسل الى الاسكندرية عبد الله بن طاهر ، فحاصر أبا حفص والربضيين ، فاستسلموا لعبد الله شريطة رحيلهم الى أقريطش ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ، ولم يزل يفتح الحصون والبلاد ، حتى لم يبق فيها أحد من الروم .

ثم وفد على الجزيرة نفر آخر من الاندلسيين وانضموا الى اخوانهم ، ومن ثم أصبحت الجزيرة قاعدة للعمليات الحربية الاسلامية في بحر ايجة وشواطئه ، واستطاع أبو حفص أن يروع شواطىء بيزنطة ، وأشارت اليه المراجع البيزنطية باسم : « Apecapso » تحريفاً لاسم آخر له هو « أبو شابس » .

اتخذ المسلمون في كريت قاعدة لهم عند موضع بلد قديم على خليج لادا قرب رأس « فراكس » ، وحُفِرَ حوله خندق ، ثم عرف هذا الموضع كله « بالخندق » وفيه نشأت المدينة المعروفة باسم « كانديا » ، وهي تحريف لكلمة الخندق[1] .

وفي كريت أقام المسلمون دولة ، أو إمارة إسلامية أسسها أبو حفص عمر البلوطي ، ولما توفي سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م ، خلفه ابنه شعيب من بعده ، ومن ثم حفيده عبد العزيز المعروف « بالغليظ » ، وتوفي هذا الأمير بالقسطنطينية ، وخضع ابنه اينماس للبيزنطيين [٣٤٩ ــ ٣٥٠ هـ / ٩٦٠ ــ ٩٦١ م] .

---

(١) المسلمون في حوض البحر المتوسط ، د. مؤنس ، ص : ١٣٨/١٣٧ .

بقي المسلمون في أقريطش قرناً وثلث القرن ، لم تنقطع خلالها الحرب بينهم وبين بيزنطـة ، حتى وصلوا الى تراقيـا وجزر السيكلاديز في بحر إيجة • واتخذوا قواعد لهم في جزره ، مثل جزيرة نيون قرب شبه جزيرة خالسيدس ، وتحكموا في كثير من الجزر مثل : ناكوس وباتموس وباروس وايجينا وساموس ، وذكر بعض المؤرخين أن أثينا ذاتها كانت قاعدة للمسلمين •

ولما كان مسلمو أقريطش « كريت » على تحالف وثيق مع مصر الاسلامية فقد هاجمت بيزنطة دمياط عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م، زمن ولاية عنبسة بن اسحاق على مصر من قبل الخليفة المتوكل العباسي ، ونهبوها وسبوا أهلها وخربوها ، ثم عادوا مسرعين ، وتكررت غارة البيزنطيين عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م في ولاية يزيد بن عبد الله (٢٤٢ ـــ ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ ـــ ٨٦٧ م)[١] •

أما مدينة « الخندق » فقد ظلت مركز تهديد حقيقي للنفوذ البيزنطي في بحر ايجة ، خصوصاً بعد فشل اسطول الامبراطور ليو السادس في رد هجـوم المسلمين على سالونيكا • وفي زمن الامبراطور ميخائيل جهزت حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحـر « أوريفاس » ، جاست خلال جزر بحر ايجة وطاردت البحـارة المسلمين ، غير أنها ارتدت أمام هجمات بحارة أقريطش المسلمين • وجهز الامبراطور تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاموس •

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ٥٤/٥٥ •

لبث المسلمون في أقريطش « كريت » من عام ٨٢٥ م وحتى ٩٦١ م فارضين سيادتهم على جزر بحر ايجة وشمال المتوسط ، حتى استعاد الجزيرة الامبراطور البيزنطي رومانوس الثاني سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م •

* * *

٤ ـ مَالطـــة «مفتاح حوض المتوسط» :

تم الفتح الكامل لمالطة[1] عام ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م ، زمن أبي عبد الله محمد الأغلبي ، وجاء فتحها مكملا لحصار صقلية • وتأكد بعد فتح صقلية ومالطة سيطرة المسلمين التامة على المضايق، مسيِّنا شمال شرق صقلية والمضيق بين تونس وجنوب صقلية •

وكان مقام المسلمين بمالطة أطول من مقامهم بجزيرة صقلية، ولذلك فاننا نجد في اللغة الملطية أصول اللغة العربية ، وسعد أهلها في ظل الحكم الاسلامي للتسامح واللين اللذين أظهرهما الفاتحون المسلمون ، ولأن الضرائب التي فرضت عليهم كانت معتدلة جدا •

وخرجت مالطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ م ، فقد

---

(١) مالطة : أصل التسمية يونانية « ميليته » وتعني النحل ، وحول مالطة عدة جزر هي : غوزو Gozo ، وكومينو Comino ، وكومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola ، وكلها خضعت للمسلمين ، راجع : غزوات العرب لارسلان صفحة : ٢٨٤ ، والمسلمون في أوربة صفحة : ٦٧ وما بعدها .

استردها النورمانديون بعد استردادهم لصقلية غير أنه سمح للمسلمين الاقامة فيها الى سنة ١٢٤٩ م ، وصارت فيما بين سنة ١٥٣٠ م وسنة ١٧٩٨ م مركزا لفرسان ماريوحنا الذين طردهم العثمانيون من رودس سنة ١٥٢٣ م ، فانتقلوا الى مالطة ، وأنشأوا أسطولا عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين . ولما كان يؤتى بألوف من أسارى المسلمين الى مالطة ، فقد قصد العثمانيون الاستيلاء عليها سنة ١٥٦٥ م ، ولكنهم لم يتمكنوا منها ، وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع(١) .

واحتل نابليون الجزيرة سنة ١٧٩٨ م ، ثم احتلها الانكليز عام ١٨٠٠ م ، وهي اليوم دولة مستقلة .

* * *

٥ـ قوصرة :

ذكر ياقوت الحموي أنها فتحت أيام معاوية ، والأرجح أن أول من غزاها هو عبد الملك بن قطن الفهري ، خلال ولاية موسى بن نصير على افريقية ، وذلك عام : ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، ثم غزاها حبيب بن أبي عبيدة الفهري زمن ولاية عبيد الله بن الحجاب لافريقية والمغرب ، وذلك حوالي عام ١١٨ هـ / ٧٣٦ م ، وكان

---

(١) تاريخ غزوات العرب لارسلان ، صفحة : ٢٨٦ ، وقد اعتمد الامير أرسلان على مؤلف أحمد فارس الشدياق ـ الذي أقام أربعة عشر عاما في مالطة ـ وكتابه يحمل اسم : « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » .

الفتح النهائي على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهري حفيد عقبة بن نافع سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م .

واتخذ الأغالبة جزيرة قوصرة[١] قاعدة لفتح صقلية ، وأقاموا بها مركزا للحمام الزاجل « حمام الرسائل » ، ونقلوا اليها بعض السكان النصارى من صقلية ، وعدداً من فلاحي تونس من عرب وأفارقة، فتمازجوا واقتبسوا العادات الاسلامية واللغة العربية[٢].

وقد امتدت السيادة الاسلامية على قوصرة حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

* * *

٦ - سردينية وكورسيكة :

أول غزو إسلامي لسردينية « أو سردانية » كان عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م أيام موسى بن نصير ، وتم الفتح الجزئي لهذه الجزيرة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٩ م زمن الخليفة الأموي عبد الرحمن بن الحكم، واتخذ المسلمون من فتوحهم في سردينية نقطة انطلاق لمهاجمة ايطالية وجنوب فرنسة .

وفي عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م قامت غزوة من المهدية في شمال

---

(١) قوصرة Cossyra وتعني باليونانية السلةأو السفط ، وربما كانتمشتقة من الفينيقية القديمة قيصرة تصغير قصرة . وهي تقع في منتصف الطريق بين صقلية وساحل افريقية الشمالي ، فهي تبعد ٦٠ ميلا عن صقلية و٤٠ ميلا عن افريقية .

(٢) المسلمون في أوربة ، ص : ٦٥ وما بعدها .

افريقية ، حيث ابحر أسطول اسلامي بقيادة يعقوب بن اسحاق ، هاجم سردينية وجنوا ، وعاد محملا بالغنائم ، ولم يستقر المسلمون في سردينية بسبب تفرق الكلمة بين أمويي الأندلس وأدارسة المغرب ، وأغالبة تونس •

والفتح الحقيقي لسردينية ــ وهي التابعة لفرنجة فرنسة ــ كان في ربيع الأول ٤٠٦ هـ / آب « أغسطس » ١٠١٥ م ، على يد مجاهد العامري ، الذي كان يهدف الى الفتح والاستقرار ، لا الغزو والغنائم فحسب •

واقترن الفتح الاسلامي لسردينية بفتح كورسيكة ، التي فتحت عام ١٩١ هـ / ٨٠٦ م ، فأصبحت قاعدة للعمليات البحرية لغزو الشواطىء الايطالية •

أرسل شارلمان عام ٨٠٦ م قوات بحرية لطرد المسلمين من كورسيكا ، ولكن قائد اسطوله هادومر ــ كونت جنوا ــ قتل ، فأرسل اسطولا آخر بقيادة « برخارت » فأحرج موقف المسلمين في الجزيرة[١] •

خضعت كورسيكة وسردينية لسيادة الفاطميين عام ١٠٠٣هـ، ثم غزا مجاهد العامري سردينية عام ١٠١٥ م • غير أنه اضطر الى الانسحاب منها سنة ١٠١٦ م ، بسبب الحلف بين جنوا وبيزا الذي انهى الحكم الاسلامي للجزيرة •

---

(١) المرجع السابق ، ص : ٧٨ وما بعدها •

فلما وقع الصراع بين بيزا وجنوا حول السيادة على سردينية، عاد المسلمون فغزوها سنة ١٠٥٠ م ولكن احتلالهم لها كان مؤقتاً. فقد انسحب المسلمون عن كورسيكة وسردينية نهائيا عام ١٠٥٠م.

* * *

٧ـ جزر البليار « ميورقة ، مينورقة ، يابسة » :

ارتبط تاريخ هذه الجزر بتاريخ وأحداث الأندلس لقربها من شواطئها ، فهي « الجزائر الشرقية » لوقوعها شرق الأندلس .

وأول من غزاها موسى بن نصير عندما أرسل ابنه عبد الله فغزا ميورقة ، وتكرر غزوها بعد ذلك ، ومنها أيام الحكم بن هشام الأموي الأندلسي سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، فاستعان أهلها بشارلمان، الذي نجح في ابعاد المسلمين عنها لفترة طويلة .

وفي زمن الحكم بن هشام قامت أيضا حملة عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م باتجاه البليار ، فوقع أهلها عهدا مع المسلمين ، ثم نقضوه سنة ٢٣٤ هـ فأرسل عبد الرحمن الثاني بن الحكم (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ / ٨٢١ ــ ٨٥٢ م) أسطولاً مكوناً من ثلاثمائة مركب[١]، نجح في اخضاعهم ، وفي ذلك يقول ابن عذاري في بيانه المغرب[٢]: « وفي سنة ٢٣٤ هـ ، أمر الأمير بتوجيه العساكر الى أهل جزيرة

---

(١) المسلمون في اوربة ، صفحة : ٧٠ .
(٢) البيان المغرب .. ج : ٢ ، ص : ١٣٢ .

ميورقة لنكايتهم واذلالهم ومجاهدتهم لنقضهم العهد واضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين ، فغزتهم ثلاثمائة مركب ، فصنع الله للمسلمين جميلا وأظفرهم بهم وفتحوا أكثر جزائرهم » •

وفي عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م أرسل الخليفة الاموي الاندلسي عبد الله بن محمد[1] أسطولا بقيادة عصام الخولاني ، وعينه حاكما على جزر البليار ، ففتح ميورقة ومينورقة ، وبقيت يابسة بيد حاكمها « جويزا » ، وبقيت الجزر تحكم باسم بني أمية حتى سقوط قرطبة عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م •

ولما قامت دول الطوائف في الأندلس ، استقل أبو الحسين مجاهد بن عبد الله العامري[2] « بدانية » بشرق الأندلس ، فانطلق منها باسطول قوي عام ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ ـ ١٠١٥ م ، وفتح جزر البليار الثلاث ، وأعلن استقلاله بها عام ٤٣١ هـ / ١٠٢٢ م ، وولى عليها عبد الله ابن أخيه ، ثم خلفه الأغلب مولى مجاهد ، وفي خلال حكم الأغلب مات مجاهد سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ ، فخلفه ابنه علي الملقب باقبال الدولة[3] الذي كان يقيم « بدانية » •

---

(١) (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ / ٨٨٧ ـ ٩١٢ م) •

(٢) كان رقيقا في بلاط المنصور بن أبي عامر في قرطبة ، اشتهر مجاهد بالشجاعة والمغامرة وسعة الثقافة في العلوم الدينية والادبية ، وبفضل مواهبه استقل بدانية وجعلها قاعدة للفتح والغزو ، حتى صار أسطورة عجيبة في تاريخ العلاقات الاسلامية الايطالية بعد أن غدت دانية نقطة وثوب على جزر البليار وسردينية ، وكان ذكر اسمه يلقي الرعب في قلوب الاوربيين النصارى ، ويعرف في كتب الاوربيين باسم : Mujet او Musectus .

« راجع المسلمون في أوربة ، ص : ٧٤ : عن ابن خلدون ج : ٤ ، ص : ١٦٤ ، الروض المعطار ص : ٧٦ ، أرسلان غزوات العرب ص : ٢٠٢ » •

(٣) ابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ١٦٤ •

وكان الأغلب كثير الغزو في البحر ، فاستأذن علياً في ذلك فأذن له ، وقبل أن يغادر الأغلب البليار عين صهره سليمان بن مشكيان نائباً عنه ، فظل يحكمها خمس سنين حتى وفاته ، فولى علي مكانه مبشراً الملقب بناصر الدولة ، وخلال حكم مبشر على ميورقة سقطت دانية في يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة من ملوك الطوائف[1] .

وتعرض مبشر لأطماع كونت برشلونة الفرنجي الطاغية وهو « رامون برنجاريو الثالث » اذ تحالف هذا الكونت مع بيزا ، وهاجم البليار واستولى على جزيرة يابسة، ثم حاصر ميورقة، فاستنجد مبشر بعلي بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، فلم يستطع ابن تاشفين انجاده الا بعد سقوط ميورقة في يد صاحب برشلونة عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ، وتوفي مبشر في ذلك العام .

غير أن المرابطين نجحوا في استخلاص الجزيرة من يد صاحب برشلونة وحكموها سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وظلوا بها حتى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م . ثم حكمها من بعدهم الموحدون من عام ٦١١ هـ الى ٦٢٧ هـ (١١٢٤ ـ ١٢٢٩ م) . وفي عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م فتح جاكومو الاول صاحب أرغونة ، هذه الجزر وأخرج منها المسلمين نهائيا[2] .

★ ★ ★

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٨٦ .

(٢) المسلمون في أوربة ، ص : ١٩٧ . عن : صبح الاعشى ، جـ : ٥ ، ص : ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

★ راجع صفحة ٨٩ حيث مصور جزر البليار .

فتح صقلية

ذكرت صقلية والهوى
يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة
فاني أحدث أخبارها

« ابن حمديس »

إن الموقع الاستراتيجي لجزيرة صِقِلِّيَّة ، جعل منها أهم جزر البحر المتوسط ، فهي صلة الوصل بين شمال افريقية من ناحية ، وبين ايطالية من ناحية ثانية .

ولهذا الموقع الهام ، أثر عظيم كبير تجارياً وحضارياً ، فقد سهل الاتصال بالشعوب ذوات الحضارة على شواطىء المتوسط منذ القديم[1] ، فلا عجب إذن إذا سُميت صِقِلِّيَّة « **درة جزر البحر المتوسط** » .

وفي عام ٣٦ هـ / ٦٥٦ م زمن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، وعندما كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام، بدأ الغزو الاسلامي لجزيرة صِقِلِّيَّة ، حين وجه ابن أبي سفيان

(١) راجع معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٤١٦ .
وفتوح البلدان ، ص : ٢٣٧ ، طبعة عام : ١٩٥٩ .

معاوية بن حديج الكندي ، على رأس أسطول من مئتي سفينة ، انطلقت من شواطىء سورية ، وتابع عبد الله بن قيس الفزاري قيادة هذا الأسطول ، فوصل صِـقِـلِّـيَّـةَ ، فغنم وعاد[1] •

واستمر الغــزو الاسلامي لجزيرة صقلية ، وكان مسلمو افريقية ـ بحكم موقعها الجغرافي ـ هم الذين تولوا أمره ، وكان معظمهم من البربر ، لقلة العرب في شمال افريقية وقتئذ ، مع العلم أن البربر من أشد الشعوب التي اعتنقت الاسلام بأساً ، فغزاها :

ـ عباس بن أخيل من رجال موسى بن نصير •

ـ ومحمد بن يزيد الأنصاري[2] والي افريقية (٩٧ ـ ٩٩هـ / ٧١٥ ـ ٧١٧ م) •

ـ وأيام أبي جعفر المنصور قام عبــد الرحمن بن حبيب الفهري[3] ـ والي افريقية ـ بغزوها عام (١٣٥ هـ / ٧٥٢ م)•

---

(١) أصاب عبد الله بن قيس أصناما من ذهب وفضة مطلية بالجواهر ، ولما بعث بها الى معاوية بن أبي سفيان والي الشام حينئذ ، وجهها الى البصرة ، لتحمل الى الهند لتباع هناك بأسعار عالية ، وأخرج الخمس ، وكتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه بسلامة المسلمين من هذه الغزوة •

(٢) محمد بن يزيد القرشي بالولاء ، أمير افريقية ، أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام سنة ٩٧ هـ واليا عليها : وكانت الاندلس تابعة لهــا ، وعزله الخليفــة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ • (راجع النجوم الزاهرة ١/٢٣٥ و ٢٤٥ ـ والكامل في التاريخ ٥/٨و٣٨ ـ وابن خلدون ٤/١٨٨) •

(٣) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، أمير من الشجعان الدهاة ، كان مع أبيه بافريقية : ولما قتل أبوه سنة ١٢٢ هـ ، ســار الى الاندلس وحاول اقتحامها فلم يفلح : فعاد الى تونس ، فبايعه أهلها سنة ١٢٦ هـ ، فسار بهم الى القيروان ، فملكها ، وغزا تلمسان وصقلية وسردينية : قتل غيلة في قصره بالقيروان سنة ١٣٧ هـ • « الاعلام ، ج : ٤ ، ص : ٧٣ » •

ـ وتكرر الغزو أيضا عام : (١٤٦ هـ / ٧٦٣ م)[١] .

وكان للأغالبة ـ حكام افريقية ـ النصيب الأكبر ، والجهد الأهم ، في فتح صقلية ، واكمال فتحها .

فمن هؤلاء الأغالبة ؟

★ بدأ نفوذ بني رستم يزداد في المغرب الأوسط ، مما أقلق العباسيين على سلطانهم في افريقية ، وبخاصة عندما بدأ يتزعزع ويهتز ، بعد وفاة الوالي العباسي القدير يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٧٠ هـ .

وفي وسط هذه الأحداث ، ظهر ابراهيم بن الأغلب[٢] ، الذي استطاع أن يعيد للعباسيين سلطانهم على شمال افريقية . فطلب اليه السكان أن يطلب من الخليفة العباسي هارون الرشيد الولاية عليهم ، فكتب ابراهيم الى الرشيد في ذلك ، على أن يدفع اليه مئة ألف دينار كانت تحمل من مصر الى افريقية كل عام ، وأن يحمل هو من افريقية الى بغداد أربعين ألفا ، وبعد ان استشار الرشيد أصحابه ، كتب اليه عهداً بولاية افريقية مدى الحياة ، ووراثية في أولاده ، على أن يتولى الخليفة العباسي في بغداد اعتماد الولاة واحداً بعد الآخر .

ضبط ابراهيم الولاية ، وسكنت البلاد ، وابتنى مدينة

---

(١) البيان المغرب ، ج : ١ ، ص : ٦٥و٧٧ .

(٢) ابراهيم بن الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة بن سوادة التميمي (١٤٠ ـ ١٩٦ هـ / ٧٥٧ ـ ٨١٢ م) .

« العباسية » قرب القيروان ، وانتقل إليها ، وسرعان ما ازدهرت وظهرت فيها المبـاني الشاهقة ، وألوان من النشـاط العلمي والاقتصادي[1] .

وتذكر المراجع ان ابراهيم كان على علم بالأدب والفقه كما كان شاعراً وخطيباً شجاعاً . يقول ابن عذارى في بيانه المغرب : « لم يل افريقية أحسن سيرة ، ولا أحسن سياسـة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه[2] » .

وهكذا .. أسس ابراهيم بن الأغلب إمارة الأغالبة ، التي تعاقب عليها أحد عشر أميراً[3] من عام : ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وحتى : ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، حين وصل الفاطميون الى السلطة .

لقد حقق الأغالبة نجاحاً رائعاً في الداخل والخارج ، ففي الداخل كمل انتقال افريقية الى المحيط الاسلامي ، واطرحت الى الأبد بقايا الدين المسيحي ، كما تم انتشار اللغة العربية بها مكان اللغة اللاتينية ، واللغات المحلية ، التي كانت منتشرة قبل الأغالبة.

« واستطاع الأغالبة أيضا أن يقضوا على الفتن والقلاقل في ربوع إفريقية، وأن يعيدوا الى البلاد الأمن والاطمئنان، وتم في عهد الأغالبة امتزاج واسع بين العرب وبين السكان الأصليين بسبب المصاهرة ونشر الثقافة العربية والاسلامية .

---

(١) مروج الذهب ، جـ : ٢ ، ص : ٢١٨ ، وابن خلدون : جـ : ٤ ، ص : ١٩٣.

(٢) البيان المغرب ، جـ : ١ ، ص : ٩٢ ، وراجع الاعلام ، جـ : ١ ، ص : ٢٦.

(٣) راجع جدول الاغالبة في نهاية الكتاب .

ومما ينسب الى الأغالبة أنهم أدخلوا الى الشمال الافريقي فنون العمارة التي كانت معروفة في دمشق وبغداد والقاهرة آنذاك وقد أنشأوا مدينة رقادة التي خلدها ابن هانىء في شعره فيما بعد ، كما شيدوا بالمدن التي كانت موجودة كتونس والقيروان وطرابلس كثيراً من المباني التي لا تزال آثارها باقية ، واهتم الأغالبة بالطرق والبريد والمواصلات ، وفي ظلهم ظهر كثير من العلماء والباحثين والفنانين •

أما في الخارج فقد ذاع صيت الأغالبة وأصبحوا مركز قوة هائلة بالشمال الافريقي والبحر المتوسط[1] » يقول Stanley Lane Poole [2]

« إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطانا وطيدا في البر ، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضا ، فكانوا سادته والمسيطرين على الملاحة فيه ، وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب في سواحل فرنسة وايطالية وكورسيكا •• » •

❋ ❋ ❋

قبيل فتح صقلية :

عقد ابراهيم الأغلبي[3] هدنة ومعاهدة مع حاكم صقلية الخاضع للامبراطورية البيزنطية ، وهو البطريق « قنسطنطين » ؛ مدتها عشر سنوات ، ولم يطل أمر المعاهدة هذه ، بسبب مخالفة

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، د• أحمد شلبي ، ط ١٩٧٥ ، ج : ٤ ، ص : ٢٨٠ •

(٢) المرجع السابق عن : Muh. Dynasties pp. 36/37

(٣) من : ١٨٤ ـ ١٩٧ هـ ، ٨٠٠ ـ ٨١٢ م •

ونقض البيزنطيين الصقليين لأهم بنودهـا ، ألا وهو رد الأسرى المسلمين الى ديارهم .

يقول الدكتور « مارتينو ماريو مورينو » في كتابه « المسلمون في صقلية » عن أسد بن الفرات : « وفنَّد حجج المتمسكين بحرمة العهود باتهامه الصقليين بعدم رد بعض الأسرى المسلمين خلافاً للشروط ، وإن كان سبب عدم ردهم أنهم كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي فلا يُعَدُّون، إذاً ، من أهل الاسلام، وبين لهم ضعف دفاع الجزيرة ، وختم كلامه بالآية القرآنية التي تقول ــ نوردها هنـا كما أوردها مارتينو حرفياًــ : فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون، الله معكم ولن يتركيكم[1] ٤٧ [محمد] ٣٧ . كان هذا القول فصل الخطاب، فقر القرار على مهاجمة صقلية ، وطلب الشيخ ــ أي أسد بن الفرات ــ شرف التقلد بقيادة المجاهدين ، خوفاً منـه أن يكتفي غيره بكثرة الغنائم والسبايا ، فتبقى هذه الحرب عقيمة مثل الحروب السابقة ، فأجابه زيادة الله الى طلبه نزولا على رغبة الجمهور[2] » .

وقول « مارتينو » مرفوض قطعاً ، لأن كتب التاريخ لم تسجل تنصُّراً لأسير مسلم واحد في صقلية .

هذا .. وما عرف عن المسلمين تنصرٌ جماعي مطلقاً ، إلا كرهاً وإلا قسراً .. ومسيرة التاريخ خير شاهد !؟!

---

(١) الآية صحيحة : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم » . (محمد : ٣٥) .

(٢) راجع المسلمون في صقلية ، ص : ٨و٩ .

نقض البطريق قنسطنطين عهده مع الأغالبة ، فأرسل الأغالبة عام ١٩٧ هـ / ٨١٢ م أسطولا هاجم بعض الجزر التابعة لصقلية ، وأرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الأول [٨١١ ــ ٨١٣] أسطولا بقيادة جريجوري ، انضمت إليه عمارة بحرية من المدن الايطالية الساحلية مثل : جايتا وأمالفي ، غير أن المسلمين استطاعوا أن يهزموا الأسطول البيزنطي وغنموا بعض سفنه قرب جـزيرة « لبندوشة » .

وعاود البيزنطيون الكرّة ، فأرسلوا أسطولاً جديداً ، فانتصروا على الأسطول الاسلامي ، مما أدى الى تجديد الهدنة مرة أخرى ، ولكن أمدها لم يطل ، فقد أرسل زيادة الله الأغلبي ــ ثالث حكام الأغالبة في افريقية[١] ــ أسطولا لفتح صقلية بقيادة ابن عمه ، فلم يفلح في فتحها ، ولكنه استطاع أن يرد الأسرى المسلمين .

وفي سنة ٨٢٥ م ، قام في صقلية مغامر اسمه : «أوفيميوس» Euphemios ، وتلقّبه المراجع العربية « فيمي »[٢] ، وخرج على جريجوري حاكم صقلية البيزنطي ، (وفيمي هذا كان أمير

---

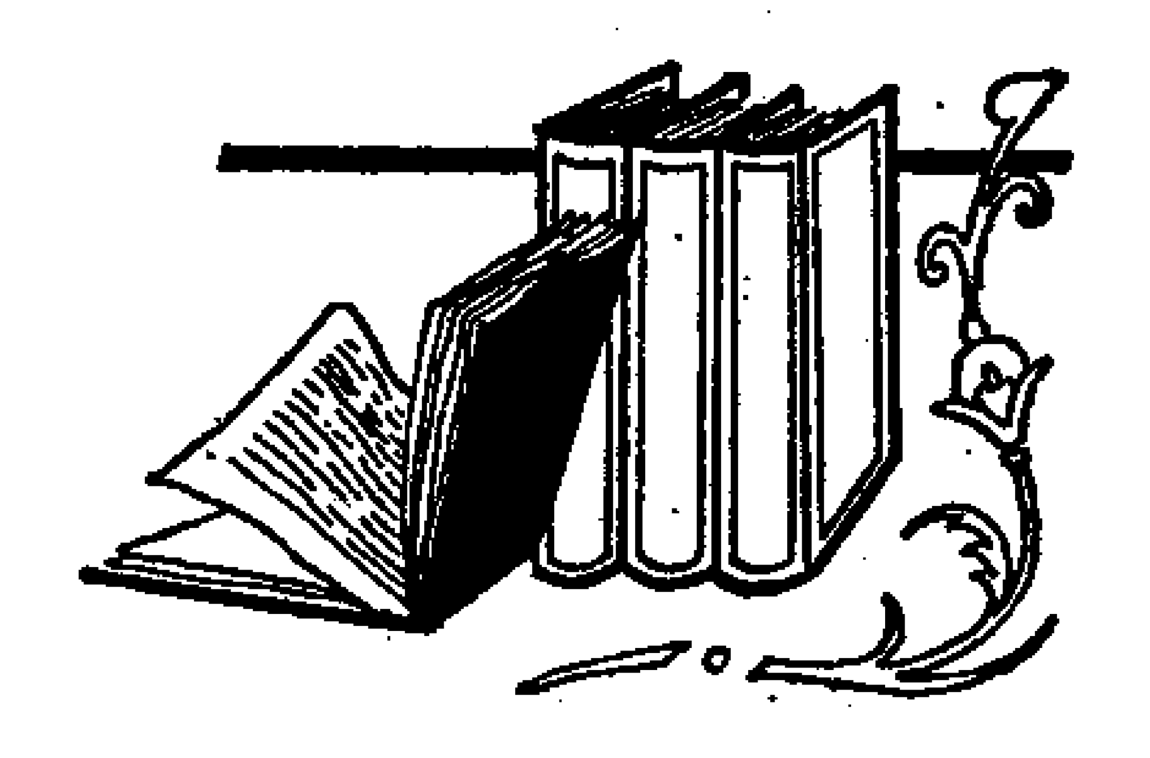
(١) ٢٠١ ــ ٢٢٣ هـ / ٨١٧ ــ ٨٣٨ م .

(٢) تقول الروايات الاوروبية ان سبب لجوء فيمي : اما لان الوالي العام لصقلية قد خطف منه مخطوبته ؛ أو لان فيمي هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، فقضى الامبراطور ميخائيل الثاني بجدع أنفه عقابا له على جرمه ، ففر الى بلـدة سرقوسة وثار في عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطي ، ووقعت في الجزيرة حرب أهلية لم يثبت فيها فيمي ، وأخرج من سرقوسة ، ففر الى افريقية واستغاث باميرها . « راجع مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص : ٨٨ » .

« وسرقوسة » هي « سيراكوزا » راجع المصور .

البحر في الأسطول البيزنطي المرابط في صقلية ، علم أن الامبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ ــ ٨٢٩ م) قد أمر بالقبض عليه وقتله . فثار على حاكم صقلية وقتله ، ونصَّب نفسه حاكما على صقلية عام ٨٢٥م ، وفي عام ٨٢٦م جاءت قوة بيزنطية بقيادة قنسطنطين للقضاء على الثائر ، غير أن الثائر فيمي تمكن من القضاء على هذه القوة وقتل قنسطنطين ، وجاءت قوة جديدة بقيادة أرميني ، الـذي سماه العرب « بلاطة »[1] ، فانتصر ، وهرب فيمي الى افريقية ، ولجـأ الى المسلمين مستجيراً ، وفي القيروان طلب مسـاعدة زيادة الله بن الأغلب .

أرسل زيادة الله بن الأغلب حملة بقيادة أسد بن الفرات لفتح صقلية . فمن هو أسد بن الفرات ؟



---

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١٨٧ .

أسد بن الفرات

★ الفقيه المجاهد ، قاضي القيروان ، تلميذ مالك بن أنس .

أبو عبد الله ، أسد بن الفرات بن سنان[1] ، نشأ بتونس وفيها قرأ وكتب ، وأخذ في حفظ القرآن الكريم ، واستكمل دراسته فيها على يد علي بن زياد العبسي ، وهو يقول في ذلك : « إني لادعو الله لعلي بن زياد مع والدي لأنه أول من تعلمت العلم عليه » .

رحل الى الشرق في طلب الحديث سنة ١٧٢ هـ ، وفي الحجاز قابل امام دار الهجرة مالك بن أنس ، الذي كان شيخاً شارف على الثمانين ، تحيط به هالة من المجد العلمي ، فأمضى ابن الفرات فترة من الزمن غير قصيرة يجلس الى مالك ويشهد حلقاته ، ويكتب عنه ، ويتحدث اليه ، فيتشرب في خلال ذلك من روحه ومذهبه .

---

(١) قيل : ولد بحران ، أو بنجران ورحل أبوه الى القيروان في جيش محمد بن الاشعث الخزاعي ، فاخذه معه وهو طفل فنشأ بها ، ثم بتونس ، أما في الاحاطة في أخبار غرناطة (ص : ٤٣٠/٤٣١ ، ط ١٩٥٦) فجاء : أنه أندلسي من اقليم غرناطة . ولد عام ١٤٢ هـ أو ٧٥٩ م : وتوفي عام ٢١٣ هـ أو ٨٢٨ م. . (راجع الاعلام ، ج : ١، ص : ٢٩٠ ، ومقال د. الحاجري في « العربي » العدد : ٥٤ ، صفحة : ٥٠ ، وكتابنا : من ضيع القرآن ؟ صفحة : ١٦٦ ومابعدها) .

ما رآه ابن الفرات في الحجاز ، حفز تطلعه العلمي ، وأثار رغبته في أن يمضي الى العراق ، قبل عودته الى افريقية ، وفي العراق وجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني من العناية به والرعاية لشأنه ، والتفقد لحاجاته في عيشه ودرسه ، ماسدد خطاه ومضى به نحو غايته .

وهكذا .. قدر لابن الفرات ، أن يدرس المذهبين الكبيرين السائدين في العالم الاسلامي إذ ذاك ، مذهب أهل الحديث في المدينة المنورة ، ومذهب أهل الرأي في بغداد .

وفي طريق عودته الى القيروان ، قابل في مصر أئمة الفقه من أصحاب مالك ، كعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن القاسم ، فعقد بهم صلة ، وكانت أكبر صلته مع ابن القاسم ، الذي كان واسع العلم ، شديد الورع ، نافذ البصيرة، فأثار في نفس ابن الفرات ذكر مالك ، الذي توفي أثناء مقام ابن الفرات في العراق ، فرأى في ابن القاسم صورة مالك ، جذبته إليه ، حتى قال للناس في المسجد : « معاشر الناس ، إن كان مالك ابن أنس قد مات ، فهذا مالك بن أنس » .

انتجت هذه الصلة الوثيقة بين أسد بن الفرات واستاذه ابن القاسم أثراً من الآثار الخالدة في تاريخ المذهب المالكي ، وهو ذلك الكتاب الذي تلقاه عنه ، وحمله معه الى القيروان ، ونسب اليه فسمي « الأسدية » .

اتخذ ابن الفرات القيروان مقراً له بعد عودته ، فأقبل الناس

يتلمسون حصيلة الرحلة العلمية الطويلة • فكان يجلس اليه اتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيين ، فاذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس : « أوقد المصباح الثاني يا أبا عبد الله » ، فيأخذ في ايراد مذهب مالك وشرح أقوال أهل المدينة ، فكان هذا نهجاً جديداً في دراسة الفقه المقارن ، اتسعت دراسته في القيروان •

عرف قدره ، وقدر ما يحمل في فكره ، وقدر تبحُّره في الفقه ، علي بن حميد وزير الامير زيادة الله الأغلبي ، فولاه زيادة الله بدافع من ابن حميد منصب القضاء ، الى جانب أبي محرز الكتاني ، وكان من الطبيعي أن تنشأ عن مشاركة الرجلين في القضاء ، خلافات ومشادات ومخاصمة ، ولكنها كانت خصومة في الرأي ، لا تتجاوز حدودها ، فقد كان يعصمهما من ذلك دين يكف الرجلين ، ومروءة ترتفع بهما عن سفاسف الامور ، فلا يستحل أحدهما من صاحبه مانهاه الله عنه •

وفي عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه ، يتقرب بها الى الله ، لاعزاز دينه ، وجهاد أعدائه ، فرفض الأمير الأغلبي ، ولكنه ألح في التماس تحقيق رغبته ، وكان يقول ـ وقد تجاوز السبعين من عمره ـ :

« وجدوني رخيصاً فلم يقبلوني ، وقد أصابوا من يجري لهم مراكبهم من النوتية ، فما أحوجها الى من يجريها لهم بالكتاب والسنة» •

إنه يريد أن الحرب ليست أمراً مادياً فحسب ، بل أمر روحي

أيضاً ، يشد العزائم ، ويثير النفوس ويشوقها الى الجهاد ، مما يسمى اليوم « التوجيه المعنوي » في الجيوش •

ويستجيب الأمير زيادة الله الأغلبي له ، ويوليه قيادة أسطول صقلية ، لكن ابن الفرات ما أراد الامارة ، لقد أراد الجهاد جندياً عادياً ، فقال لزيادة الله : « **أصلح الله الأمير ! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه ، تعزلني وتوليني الامارة** » • لقد رأى ابن الفرات النظر في حلال الله وحرامه فوق الامارة، وأسمى منها، وأعلى منها مرتبة، فقال زيادة الله: « **إني لم أعزلك عن القضاء ، بل وليتك الامارة ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير** » •

وعند الوداع في ميناء « سوسة » وقف المشيعون من العلماء والوجوه ، ورجال الدولة ، وعامة الناس ، فكان مشهداً أثار نفس ابن الفرات ، فوقف في الناس وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالأقلام ، فاجهدوا أنفسكم ، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالوا به الدنيا والآخرة » •

وانطلق ابن الفرات بتسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية ، وكان معظمهم من الجند المجاهدين في سبيل الله •

* * *

مسير الحملة

★ « لا حاجة لنا الى الانتصار بالكفار » .

ابن الفرات .

وصلت الحملة بعد مسير خمسة أيام من « سوسة » الى صقلية ، ونزلت في مدينة « مازارا » في ١٧ حزيران « يونية » عام ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ . وانهزم « بلاطة » ومن معه من البيزنطيين أمام أسد بن الفرات ، وهرب الى مدينة « إنا » ، التي عرفت باسم مدينة قصريانة[١] (أوكسترو جوفاني فيما بعد) ، ومنها هرب الى « قلورية » في جنوبي ايطالية حيث قتل بعدها ، وفتح المسلمون عدة حصون من الجزيرة ووصلوا الى قلعة « الكرات » ، وقد اجتمع بها خلق كثير ، فخادعوا ابن الفرات في المراودة على الصلح وأداء الجزية ، حتى استعدوا للحصار ، ثم امتنعوا عليه فحاصرهم ، وبعث السرايا في كل ناحية ، واستمر في فتوحه ، وحاصر « سَرَقُوسَة » أو « سيراكوزا » ، وجاءت امدادات من افريقية ، وجاءت سرايا المجاهدين من الاندلس على أسطول أندلسي ، ورفض ابن الفرات الاستعانة بالروم البيزنطيين الذين اجتمعوا بقيادة

---

(١) معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٤١٧ .

« فيمي » لمعاونته في القتال ، فأمر ابن الفرات فيمي وأصحابه ان يعتزلوهم وقال : « لا حاجة لنا الى الانتصار بالكفار[1] » .

واستطاع ابن الفرات دحر حامية بالرمو (بَلَرْم) : عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ، وزحف البيزنطيون الى المسلمين وهم يحاصرون سرقوسة ، واشتد حصار المسلمين لسرقوسة براً وبحراً ، وأصيب عدد كبير من المسلمين ، وهلك عدد آخر ، واشتد القتال عندما بعث الامبراطور البيزنطي مددا لصقلية ، وجرح ابن الفرات وهو يبدي حسن التدبير ، وصدق الإيمان ، وقوة الارادة .. ولكن أضر الجوع بالناس ، ومات ابن الفرات متأثرا بجراحه ، ودفن بمدينة « قصريانة » .

خلف ابن الفرات في القيادة محمد بن أبي الجواري ، وجاء أسطول بيزنطي بقيادة « ثيودوتس » ، الذي عينه الامبراطور[2] بطريقاً على الجزيرة ، فتراجع المسلمون نحو الشمال ، ورفعوا الحصار عن بالرمو ، لكنهم فتحوا في طريقهم مدينة مينومناو ، وحصن مدينة جرجنت ، وحاصروا قصريانة مرة أخرى[3] .

وفشل ثيودوتس في مهمته ، فقد هزمه المسلمون ، كما هزموا أسطولا بندقياً[4] جاء لمساعدة البيزنطيين .

---

(١) راجع المرجع السابق ، والكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ١٨٧ . وابن خلدون « العبر » ، ج : ٣ ، ص : ١٩٥ .

(٢) وهو الامبراطور البيزنطي ثيوفلس : (٨١٩ ـ ٨٤٣ م) .

(٣) كان فيمي خلال هذه الاحداث مع المسلمين ، غير أن مواطنا من قصريانة قام له وحياه باعتباره امبراطورا ، ثم اغتاله .

(٤) من مدينة « البندقية » فينيسيا حاليا .

ولما توفي محمد بن أبي الجواري ولي بعده زهير بن عوف[1]، ضاق الأمر بالمسلمين الى أن وصل مدد من افريقية ، واسطول من الأندلس من ثلاثمائة مركب بقيادة « الأصبغ »[2] ، فانتصر المسلمون على ثيودوتس وقتلوه ، ومات « الأصبغ » بطاعون انتشر في ذلك الوقت .

نجحت القوات الاسلامية بقيادة ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب في فتح بالرمو « بَلَرم » ، عاصمة الجزيرة عام ٢١٨ هـ / ٨٣١ م وساعدها على ذلك انشغال الامبراطور ثيوفلس بحروبه في شرق بلاده .

استسلمت بالرمو بشرط أن يُترك قائد حاميتها وأسرته ، وتم ذلك في شهر أيلول « سبتمبر » من عام ٨٣١ م ، وصارت بالرمو عاصمة المسلمين ، غير أن الخلافات التي وقعت بين المسلمين الأندلسيين ، والمسلمين الافريقيين ، قد أخرت اتمام فتح الجزيرة.

وفي عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م أرسل أبو عقال الأغلب امداداً جديداً من افريقية ، ففتح حصن البلوط « أبلاطينو » ، وقرلون ، وسوترا ، مما اضطر الامبراطور ثيوفلس الى طلب المساعدة من الفرنجة ، وأمده البنادقة بأسطول دمره الاسطول الاسلامي في

---

(١) ابن خلدون ، ج : ٣ ، ص : ١٩٥ .

(٢) في « تاريخ غزوات العرب » بحث عن مغازي العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط بقلم الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، ذكر فيه ان الاصبغ معروف باسم « فرغلوس » ، راجع صفحة : ٢٩٦ وما بعدها من المرجع المذكور .

مياه (تارانت) جنوبي ايطالية ، ويمكن القول إنه في عام ٨٤٠ م كان المسلمون قد فتحوا ثلث الجزيرة تقريباً[(١)] .

وفي الفترة مابين ٨٤٢ ـ ٨٤٥ م فتح المسلمون كالتا جيروني ومسينا ، وجاء في « الكامل في التاريخ » : « وفي سنة ٢٣٢ هـ حاصر الفضل بن جعفر مدينة مسيني « مسينا » فأخبر الفضل أن أهل مسيني كاتبوا البطريق الذي بصقلية لينصرهم ، فأجابهم وقال لهم : إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني ، فإذا رأيتم ذلك ، ففي اليوم الرابع أصل اليكم ، فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة ، فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال ، ولما رأى أهل مسيني النار أخذوا في أمرهم ، وأعد الفضل ما ينبغي أن يستعد به ، وكمن الكمناء ، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا الى جهة الكمين ، فاذا خرج أهلها عليهم قابلوهم ، فاذا جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم ، وخرج الكمين من خلفهم ، ووضعوا فيهم السيف ، فلم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان عن أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة ، فأجابهم المسلمون الى ذلك ، وأمنوهم فسلموا المدينة ، وفيها أي في سنة ٢٣٢ هـ ـ أقام المسلمون بمدينة طارنت من أرض انكبردة وسكنوها »[(٢)] .

وفي عام ٨٤٧ م ، فتح المسلمون ليونتيني ، وعام ٨٤٨ م فتحوا راجوزة بفضل شجاعة القائد المسلم الفضل بن جعفر .

---

(١) عن « المسلمون في أوربة » بتصرف : صفحة : ٦٢/٦٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٥ ، ص : ٢٦٨ .

ويعتبر العباس بن الفضل بن جعفر [٨٥١ ــ ٨٦١ م] الفاتح الحقيقي لجزيرة صقلية ، فقد خلف أباه في قيادة القوات الاسلامية بها ، كما خلف أبا عقال الأغلب في حكم الجزيرة بعد وفاته ، وذلك بانتخاب القادة المسلمين بالجزيرة له لكفايته ، وهذا استثناء وحيد في حكم صقلية ، إذ كان الأغالبة في افريقية يخشون استقلال أحد الحكام بصقلية ، مما جعلهم يحرصون على أن يكون الحاكم من أسرتهم . ووافق الأمير محمد الأغلبي في افريقية على ما تم بصقلية بشأن العباس ، فأرسل العباس بن الفضل القوات الاسلامية الى مختلف جهات صقلية ، وكان يقود أغلبها بنفسه ، فاستأنف الهجوم على « إنا » عام ٨٥٢ م ، واتجه الى الساحل الشرقي عام ٨٥٣ م ، وغزا قطانيا ونوتو وراجوزة التي كان البيزنطيون قد استردوها من المسلمين ، وحاصر بويترا خمسة شهور حتى سلمت ، وفي عام ٨٥٦ م فتح خمسة حصون ، وهاجم عام ٨٥٧ م تورمينا وسرقوسة « سيراكوزا » ،وفي ٢٦ (يناير) ٨٥٩ م استسلمت مدينة قصريانة وفتح قلعتها التي ظلت تقاوم ثلاثين سنة ، وابتنى فيها مسجدا[١] .

جاء في الكامل في التاريخ[٢] : « فتح قصريانة عام ٢٤٤هـ ، وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى

---

(١) المسلمون في اوربة ، بتصرف ، صفحة : ٦٣ .

(٢) صفحة ٢٩٠ ، « الكامل في التاريخ » وراجع ابن خلدون « العبر » ج : ٣ ، ص : ١٩٥ .

قصريانة لحصانتها • وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين الى مدينة قصريانة وسرقوسة ، وسير جيشاً في البحر فلقيهم أربعون شلندي[1] للروم ، فاقتتلوا أشد قتال ، فانهزم الروم ، وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات مع رجالها ، وعاد العباس الى مدينته ، فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة ، فغنموا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة ، فأمر العباس بقتله ، فقال : استبقني ولك عندي نصيحة ، قال : وما هي ؟ قال « الرجل » : أملكك قصريانة ، والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء ، وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم ، فهم غير محترسين ، ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة ، فانتخب العباس ألفي فارس أنجادا أبطالا ، وسار الى أن قاربها ، وكمن هناك مستترا ، وسير عمه رباحاً في شجعانهم ، فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح ، فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه ، فنصبوا السلاليم ، ودخلوا المدينة والحراس نيام ، وفتحوا الابواب • وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة ، وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال ، وبنى فيها في الحال مسجدا ، ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة ، ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم[2] بطريقاً من القسطنطينية في ثلثمائة شلندي ، وعسكر كثير الى

---

(١) نوع من كبار السفن المسطحة ، وهي معدة للبضائع أصلا « د. حسين مؤنس ، المسلمون في البحر الابيض ، ص ١١٠ » .

(٢) كان الامبراطور ميخائيل الثالث الملقب بالسكير (٨٤٢ ـ ٨٦٧) والوصي عليه بدراس .

سرقوسة ، فخرج اليهم العباس من المدينة ، ولقي الروم ، وقاتلهم فهزمهم ، فركبوا مراكبهم هاربين ، وغنم المسلمون منهم مائة شلندي[1] » •

وهكذا فشلت جهود «بدراس» الوصي على العرش البيزنطي زمن الامبراطور ميخائيل الثالث « السكير » آخر سلالة الاسرة العمورية ، فقد قضى العباس على الاسطول الضخم الذي أرسله « بدراس » عند سرقوسة •

تلا سقوط قصريانة ، سقوط سرقوسة في يد المسلمين في ٢١ آذار « مارس » ٨٧٨ م[2] ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وكان سقوطها كارثة كبرى لبيزنطة وسياستها الحربية ؛ فقد انهارت الجهود الجبارة التي بذلتها خلال سنوات طويلة لاعادة النفوذ البيزنطي على ساحل البحر الادورياني •

وسقطت مدينة«تاورومنيوم»• في أول آب(اغسطس)٩٠٢م، بفضل شجاعة ابراهيم الأغلبي ، وهذه المدينة هي آخر معقل بيزنطي في صقلية ، وبسقوطها أضحت صقلية كلها خاضعةللسيادة الاسلامية ، باستثناء بعض القرى الصغيرة ، قليلة الأهمية التي

---

(١) توفي العباس في ٣ جمادى الاخرة ٢٤٧ هـ ١٥ آب (اغسطس) ٨٦٢ م ، ودفن في « غيران قرقنة » • ونبشه الروم وأحرقوا جثته ، كانت ولايته احدى عشرة سنة ، داوم على الجهاد شتاء وصيفا • يقول ابن خلدون : وذل الروم بصقلية من يومئذ ، أي من يوم ولايته « العبر ، ج : ٣ ، ص : ٢٠٢ » •

(٢) سقطت سرقوسة في ١٤ رمضان ٢٦٤ هـ على يد جعفر بن محمد بعد حصارها برا وبحرا ، وهزم جعفر اسطولا روميا جاء لنجدتها وظفر بأربع قطع بحرية منه • راجع : « الكامل ، ج : ٦ ، ص : ٦ » •

بقيت خاضعة لبيزنطة ، مثل : دنونا ، وروتا في شرقي الجزيرة ، وحتى هذه الأخيرة سقطت في يد المسلمين عام ٩٦٥ م ودمر المسلمون القوة البيزنطية التي وصلت بقيادة مانويل لمساعدتها .

ساد المسلمون جميع أنحاء الجزيرة تقريبا في مطلع القرن العاشر الميلادي ، إلا أن الانقسامات التي وقعت بين القبائل العربية المشتركة في الفتح من جهة ، وبين العرب والبربر من جهة ثانية ، اضطرت ابراهيم الثاني الأغلبي الى القدوم بنفسه الى صقلية لتهدئة الأحوال ، وتدعيم السيادة الاسلامية فيها ، ولكن موته الفجائي عام ٢٤٧ هـ / ٩٥٦ م أدى الى بعث الانقسامات ، وإثارة الأحقاد من جديد ، وكان ذلك مدعاة للضعف الاسلامي في صقلية ، وتلك هي الآفة الكامنة الدائمة التي أفقدت السيادة الاسلامية صفة الدوام والبقاء الى أجل أطول في بعض البلاد التي فتحوها . ومن نتائج هذه المحنة اضطرار مسلمي صقلية الى قبول معاهدة مع بيزنطة ، تنازلوا فيها عن مدينة « تاورومنيوم » فترة من الزمن ثم استعادوها في عام ٩٦٥ م[١] .

حكم الفاطميون الجزيرة بعد الأغالبة منذ ٢٩٧ هـ ، وأبرمت هدنة دائمة بين الجانبين الاسلامي والبيزنطي ، وممثل الجانب الاسلامي وقتئذ كان « الخليفة » أبا تميم معد المعز لدين الله الفاطمي[٢] ، وممثل البيزنطيين الامبراطور المعاصر نقفور[٣] .

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ٦٥ .
(٢) من : ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م ، الى : ٣٦٥ هـ / ٩٧٤ م .
(٣) من : ٩٦٣ م ، وحتى : ٩٦٩ م .

ثم حل في صقلية الولاة « الكلبيون » من سنة ٣٣٦ هـ ، وحتى ٤٨٤ هـ ١٠٩٠ م[1] ، حين اغتصب الجزيرة النورمانديون القادمون من الشمال •

* * *

كانت حضارة المسلمين عند فتح صقلية في أوج عظمتها ، فانسابت اليها خلال قرنين من الزمن ألوان الثقافة والمدنية من العالم الاسلامي •

لقد قامت في جزيرة صقلية دولة اسلامية ، ازدهرت في ظلها حضارة رائعة في الجزيرة ، وغدت حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، حتى اذا أدرك المسلمين الوهن ، وحل بينهم التفكك ، توالت حملات النورمان الفرنج على الجزيرة ، حتى تمكن الدوق روجر أو « رجار » النورماني من استعادتها ، وانتهت بذلك دولة الاسلام في صقلية كما ينتهي الحلم السعيد •

إن صقلية تعتبر بحق مركزاً هاماً من مراكز نقل الفكر الاسلامي الى الغرب ، فقد كانت في العصور الوسطى مركز اشعاع فكري لأوربة جميعها • كما أدخل المسلمون اليها زراعات جديدة •

جاء في دائرة المعارف « لاروس[2] » : ان صقلية مدينة

---

(١) بدأ الاحتلال النورماني سنة ١٠٧٢ م ، واستمر حتى سنة ١٠٩٠ م •

(٢) المجلد : ١٤ ، ص : ٦٧٩ • راجع : « موسوعة التاريخ الاسلامي » ج : ٤ ، ص : ٢٨٣ •

للعرب بأسمى ما عرفته من تقدم زراعي ، فالقطن وقصب السكر والفستق وغيرها ، لم تعرفه الجزيرة الا بعد دخول المسلمين إليها •

ومما هو جدير بالذكر أن الحضارة الاسلامية في صقلية استمرت في الازدهار حينا من الدهر بعد احتلال النورمانديين[1] لها ، فقد قدر النورمان تفوق المسلمين الحضاري ، فآثروا الانتفاع بعلوم المسلمين ومعارفهم وصناعتهم • ولذا فقد سمحوا ببقاء جالية اسلامية في صقلية ، تعيش في ظل النورمان آمنة متمتعة بشعائرها ونشاطها العلمي والصناعي ، ولا شك ان هذا التسامح قد اقتبسه النورمان من المسلمين تقليدا •

كما دعا الدوق روجر « رجار » الثاني ابن فاتح الجزيرة النورماندي ، رهطا من العلماء المسلمين من الصقليين المحليين ، ومن افريقية والاندلس للعمل في بلاطه ، وكان في مقدمة هؤلاء العلامة الجغرافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الادريسي السبتي، الذي دعاه الدوق وأغدق عليه رعايته ، وعهد اليه بأن يعمل كرة أرضية من الفضة الخالصة ، ترسم عليها الاقاليم المعروفة آنذاك ، فقام العلامة المسلم بمهمته على أكمل وجه ، فكافأه الدوق عليها أعظم مكافأة •

ثم عهد الدوق بعد ذلك الى الادريسي بوضع موسوعة

---

(١) النورمان : Normans اسم محرف من لفظ الشماليين : Northmen ، الذين استقروا منذ ٩١١ م بوادي السين ، واشتقت البلاد التي استقروا بها اسم نورمانديا منهم ، « راجع تاريخ أوربة في العصور الوسطى فشر ، ج : ٢ ، ص : ١٢٧ » •

جغرافية يصف فيها أحوال بلاد الارض وصورها وبحارهاوجبالها وخواصها ، ويذكر أحوال أهلها ، فوضع الادريسي موسوعته الجغرافية الشهيرة ، التي خلدت اسمه ، وهي : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، التي انتهى من كتابتها في أوائل عام ١١٥٤ م ــ قبيل وفاة الدوق بقليل ــ ويعتبر « نزهة المشتاق » أعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى[١] .

كما احتفظ روجر بنظام الادارة الاسلامي ، واستعان في ادارة شؤون الدولة بالموظفين المسلمين ، بحيث كان بلاطه في « بلرم » شرقياً أكثر منه غربيا ، وبقيت صقلية نحو قرن من الزمن بعد هذا العهد وهي في وضع فذ نادر ، إذ كانت مملكة نصرانية ، أسندت فيها بعض الوظائف العليا الى المسلمين .

ولذلك .. فلا غرابة اذا قلنا : ان النقود التي ضربها النورمان سنة احتلالهم بالرمو « بلرم » ، كانت تحمل الشهادة الاسلامية كاملة[٢] ، والآية الكريمة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره **المشركون** » ، [الصف : ٩] . وكانت التواريخ عند النورمان تعتمد على السنة الهجرية .

ولا غرابة أن نجد عشرات المفردات العربية على لسان أهل

---

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ص : ٩٠/٩١ . و (موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية) للدكتور أحمد شلبي ، ج : ٤ ، ص : ٢٨٣.

(٢) ولعل هذا حكمة تاريخية من النورمان ، اذ كان يهمهم أن تقبل نقودهم في الاسواق الافريقية المسلمة .

صقلية حتى يومنا هذا[1]، مثل :

ديوان	Douane	خزانة	Gaséna
دفتر « المعربة »	Defetari	حرارة	Carara
الرحبة	Rahba	فــلان	Filano
الربع « أي ربع القنطار »	Rubbo	خسارة	Cassàra
السِّكّة « في الايطالية »	Secca	حريري	Careri
الرطل « في الايطالية »	Ratolo	ضيقة	Dica
القنطار	Cantara	شبكية	Sciàbbica
البطيخ	Pastecca	ترصيع	Tarsia
النارنج	Naranzu	الردن	Raddéna
الناعورة	Noria	الجابية « حيث يجبى الماء »	Gebbia
الخليج « بمعنى الجدول »	Galiggi	الزعرورة «نبات»	Azzalora

وذكر ابن جبير في « رحلته » أن للمسلمين مساجدهم في مسينا، والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثيرة، وسائر المسلمين بضاعها وجميع قراها[2].

(١) راجع « شمس العرب تسطع على الغرب » لزيغريد هونكة، و « المسلمون في صقلية » ص : ٢٠و٣٤و٣٨ .

(٢) « رحلة ابن جبير » نشر دار التراث ـ بيروت، ص : ٢٦٦ .

ثم ذكر أن الملك غليام كان له شأن عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ، وكلهم أو اكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، فهم أهل دولته ، وعليهم يلوح رونق مملكته .

وكان يظهر زينته كملوك المسلمين تماما ، ومن عجيب أمره أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته ــ كما ذكر احد المختصين بخدمه ــ : « **الحمد لله حق حمده** » ، وكانت علامة أبيه « **الحمد لله شكراً لأنعمه**[1] » .

ثم ذكر ابن جبير : « ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطَّرَّاز ، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة ، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة ، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به ، تسكينا لهم .

وقال عن بلرم : « التي هي حضرة صقلية » ، للمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ... ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم[2] .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٦٧ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٧٣ .

«وزي النصرانيات في هذه المدينة زي النساء المسلمات[1] » .

أخرج فريدريك الثاني المسلمين من صقلية عام ١٢٤٩ م ، بعد أن فشل في اقامة تعاشر ثابت بينهم وبين المسيحيين ، ولكن اقتباس أوربة من الحضارة والفكر الاسلاميين، استمر زمنا أطول. فلا غرو اذن ان يوجد كتاب بالعربية عنوانه « المسائل الصقلية »، وهي المسائل التي وجهها فريدريك الى السلاطين المسلمين والاجوبة التي أعطاها عنها الصوفي المشهور عبد الحق بن سبعين ، في مواضيع مثل :

١ ــ تفصيل نظرية ارسطوطاليس في قدم العالم .

٢ ــ العلم الالهي وما المقصود منه ، وما مقدماته الضرورية ان كانت له مقدمات .

٣ ــ المقولات أي شيء هي ؟ وكيف يتصرف بها في أجناس العلوم حتى يتم عددها (وعددها عشر) وهل يمكن ان تكون أقل أو أكثر وما البرهان على ذلك ؟

٤ ــ حقيقة النفس .

٥ ــ أين خالف اسكندر الافرودسي ارسطوطاليس الحكيم[2] .

وهكذا كان لهذا الملك فضل كبير في نشر الثقافة الاسلامية في أوربة ، فقد استيقن فريدريك أن العلوم والاداب تأبى التميز

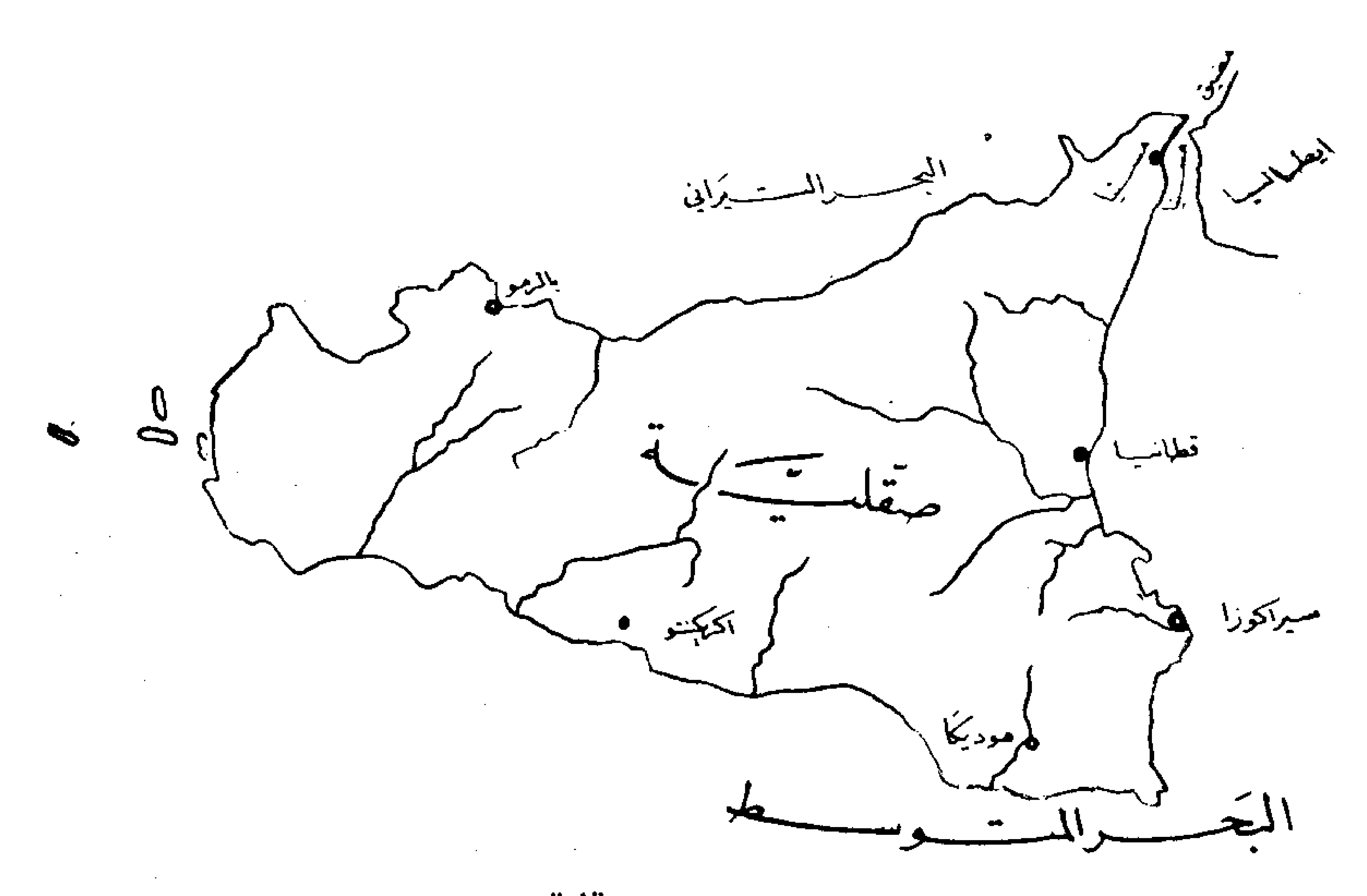
---

(١) رحلة ابن جبير ، ص : ٢٧٤ .

(٢) المسلمون في صقلية ، صفحة : ٢٦ .

بالمكان ، وترنو الى التلاقي والتعارف والتهادي في حرم لا تدوسه رجل أي متعصب ، وبهذه الروح ساعد مدرسة سالرنو Salerno الطبية المذيعة الناشرة للطب العربي ، كما أيد جامعة بولونيـة Bologna مركز تدريس الفقه الروماني ، وأسس جامعة نابولي Napoli منارة العلم جنوب ايطالية •

وهكذا نجد من نتائج الفتح الاسلامي لصقلية أن فرضت الثقافة الاسلامية نفسها على النورمانديين أولاً ، وعلى أوربة ثانيا، وان شعاعا من ذلك النور العظيم اتخذ سبيله الى أوربة خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، لا عن طريق اللاتين أو البيزنطيين •• بل عن طريق المسلمين أصحاب الأندلس وصقلية الاسلاميتين •



مصور جزيرة صقلية

خاتمة

✯ لقد كان الأثر الحضاري في المناطق التي وصل اليها المسلمون أهم عوامل وعناصر اليقظة الاوربية الحديثة المعاصرة .

عرضنا أهم أخبار المسلمين في البحر المتوسط ، حين كانت غزواتهم فيه انهاكاً لقوى أعدائهم في القسطنطينية وفي أوربة ، كما ساعدت هذه الغزوات على افتداء أسرى المسلمين بطريق المبادلة بمن يأسرون من أعدائهم في غزواتهم ، فأدت هذه الغزوات خدمات جليلة للقوات النظامية الاسلامية وحكوماتها .

وسيادة المسلمين على حوض المتوسط دليل على بدء اضمحلال الدولة البيزنطية وضعف حكومة القسطنطينية التي رعت واهتمت بمظاهر الترف وتشييد القصور والمعابد الفخمة ، وفضلت ذلك على تحصين أطراف دولتها[1] .

ويلاحظ المؤرخ أيضاً أن ميول الشعوب التي حكمتها القسطنطينية ، كانت عاملا هاما في تسهيل فتوح المسلمين ، فقد بلغ عسف وجور حكومة القسطنطينية شأواً عظيماً ، حتى أن هذه

(١) راجع « مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام » ، ص : ٩٧ وما بعدها .

الشعوب لم تر في حكم المسلمين غضاضة ، بل رأت في المسلمين منقذاً لها في أغلب الاحيان ، ولنا دليل على ذلك في فتح صقلية ، التي انضم قسم من أهلها الى المسلمين في محاربة البيزنطيين .

هذا وقد وصل المسلمون الى ثغور ايطاليا ، وحاصروا رومة عاصمة النصرانية ، وجنوة ، والبندقية ، ففي عام ٢٣١ هـ/٨٤٦م، في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب أمير أفريقية ، وفي ولاية الفضل بن جعفر الهمذاني على صقلية سارت حملة من صقلية بمحاذاة الشاطىء الايطالي الغربي ، ورست عند مصب نهر التيبر ، حيث تقع رومة ، وفيها يومئذ البابا سرجيوس الثاني ، وانقض البحارة المسلمون على رومة ، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا ، « واهتز الشعب الروماني فرقا ورعبا وبادر الامبراطور لويس الثاني ملك الفرنج واللومبارد بارسال حملة من جنده لمقاتلة المسلمين ، وجهزت ثغور نابولي وأمالفي وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم ، وقدمت في ذلك الحين سفن مسلمة أخرى لتشد أزر الحملة ، على أن الذي أنقذ المدينة الخالدة من الوقوع في يد المسلمين هو خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم، فرفعوا الحصار بعد أن قاتلوا جند الامبراطور وسفن الثغور الايطالية قتالا رائعا ، غرقت فيه بعض سفنهم ، وعادوا الى الجنوب مثقلين بالغنائم والاسرى سنة ٨٥٠ م[1] » .

وهذه الحملة جعلت ليون الرابع خلف سرجيوس يحصن

---

(١) مواقف حاسنة في تاريخ الاسلام ، ص : ١٠١ .

رومة ، ويدخل أحياءها في حمى الاسوار ، وأغلق مصب نهر التيبر بسلسلة ضخمة من الحديد تحول دون تقدم المهاجمين •

وفي عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ، أيام محمد بن أحمد بن الأغلب أمير افريقية ، وفي أيام والي صقلية محمد بن خفاجة بن سفيان رست حملة اسلامية أخرى عند مصب نهر التيبر ، واستطاعت هذه الحملة أن ترد اسطولا ايطاليا سارع الى الدفاع عن رومة ، على الرغم من بعض الخسائر في سفن المسلمين ، بيد أن هذه الخسارة الجزئية لم ترد المسلمين عن حصارهم ، فلبثوا يهددون المدينة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم على الجلاء، على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة •

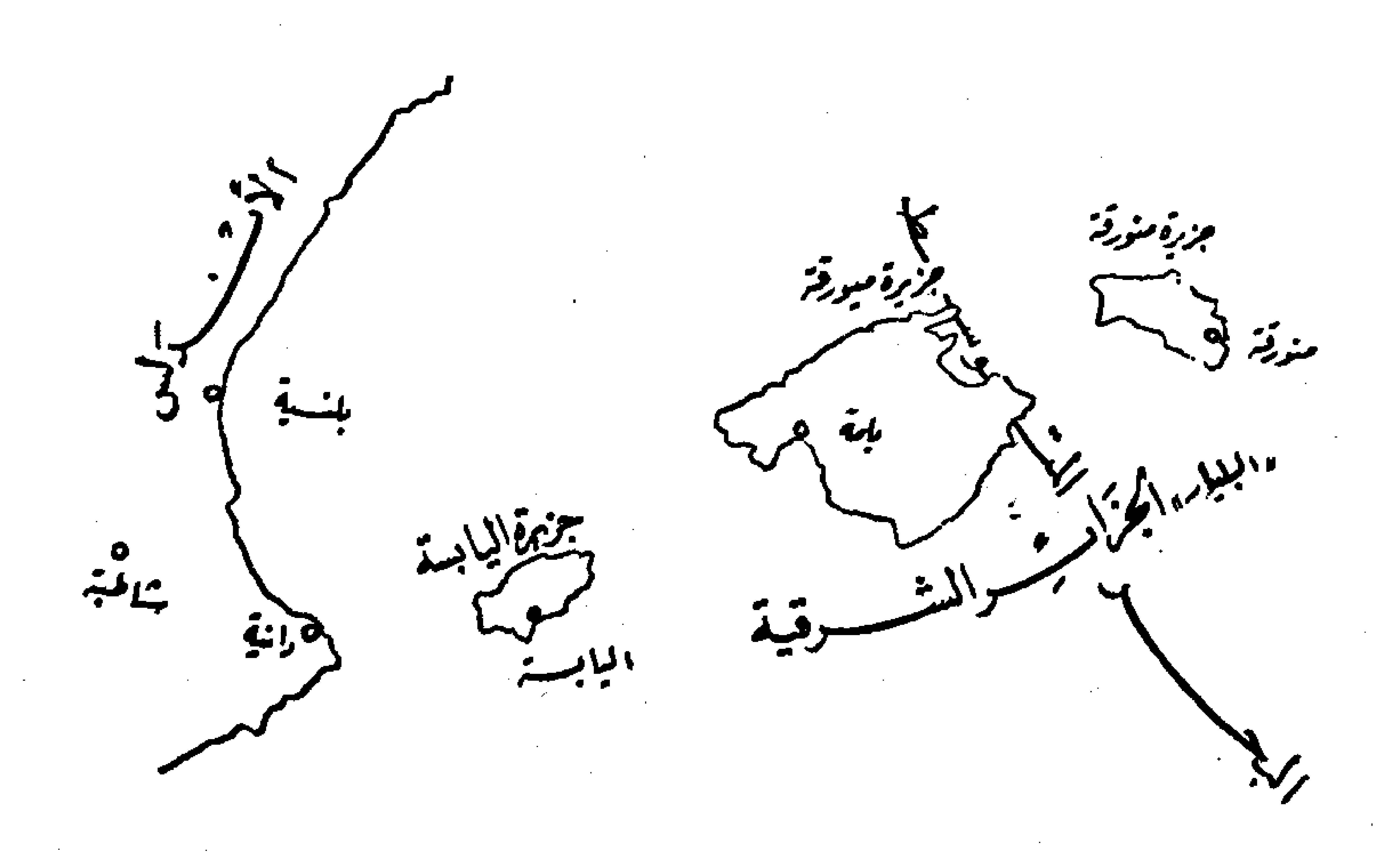
ووصل المسلمون سويسرا بعد أن جعلوا قلعة فراكسنيتيوم: Fraxinetum ، قاعدة انطلاق نحو الشمال والشرق ، سيطروا منها على أعالي الالب وعلى بييمونت وجنوة وساڤوري ، وسهل البّو : Po ، وجالوا في جميع انحاء سويسرا ، حتى وصلوا دير سان غال :Saint — Gall قرب بحيرة كونستانس •

واعترف ملك ايطاليا « هيو » بسيادة المسلمين على منطقة الألب ، وبما انها واقعة بين فرنسة وايطاليا وسويسرا ، وفيها ممر سان برنارد فقد سيطر المسلمون بذلك على منطقة استراتيجية جداً ، من الناحية العسكرية ، والناحية التجارية والثقافية أيضا •

وبعد أن سقطت قلعة فراكسنيتيوم الاسلامية بيد المتحمسين

للروح الصليبية حوالي عام ٩٧٥ م لم يعد للمسلمين تواجد في سويسرا أو في مناطق الالب • فقد كانت قلعة فراكسنيتيوم عاصمة الممتلكات الاسلامية الاخيرة في فرنسة وشمالي ايطالية وسويسرا، وكانت مشمولة برعاية الخليفة في قرطبة •

وليس من المصادفة مطلقاً أن تبدأ أوربة بنهضتها العلمية ويقظتها الفكرية ، فقد ترك لهم المسلمون تراثاً حضارياً رائعاً • حيث كان لهذا الأثر الحضاري في المناطق التي وصل إليها المسلمون أهم عوامل وعناصر اليقظة الأوربية الحديثة المعاصرة •



مصور الجزائر الشرقية (جزر البليار)

جزر البحر المتوسط

الاطلسي
غالية
لوزان
فراكسنيتوم
اسبانيا
البرتغال
قرطبة
الأندلس
البليار
كورسيكا
روما
ايطاليا
سردينية
صقلية
قوصرة
مالطة
القسطنطينية
البحر الاسود
آسيا الصغرى
رودس
كريت
قبرص
بلاد الشام
القدس
البحر المتوسط
الاسكندرية
مصر
ليبيا
القيروان
المغرب الأوسط
المغرب
مراكش
صحراء

الأغالبــة

١ ـ ابراهيم (الأول) جمادى الآخرة سنة ١ٸ٤ هـ

٢ ـ أبو العباس عبد الله (الأول) صفر سنة ١٩٧ هـ

٣ ـ أبو محمد زيادة الله (الأول) ذو الحجة سنة ٢٠١ هـ

٤ ـ أبو عقال الأغلب ، السعدي ١٤ رجب سنة ٢٢٣ هـ

٥ ـ أبو العباس محمد (الأول) ربيع الثاني سنة ٢٢٦ هـ

٦ ـ أبو ابراهيم احمد ٢ المحرم سنة ٢٤٢ هـ

٧ ـ أبو محمد زيادة الله (الثاني) ١٣ ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ

٨ ـ أبو عبد الله (أبو الغرانيق) محمد (الثاني) ٢٠ ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ

٩ ـ أبو اسحق ابراهيم الثاني ٦جمادى الاولى سنة ٢٦١ هـ

١٠ ـ أبو العباس عبد الله (الثاني) محمد شعبان سنة ٢٩٠ هـ

١١ ـ أبو مضر زيادة الله (الثالث) رمضان سنة ٢٩٠ هـ

★ فــرار زيادة الله الثالث من وجه الفاطميين :

٢٥جمادى الآخرة سنة٢٩٦ هـ

(★) عن معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي لزامباور ص١٠٦، مطبعة جامعة فؤاد الاول : ١٩٥١ ، أخرجه : د. زكي محمد حسن ، وحسن احمد محمود .

الأغالبة ولاة صقلية

	سنة
أسد بن الفرات « قاضي القيروان »	٢١٢ هـ
محمد بن أبي الجواري	٢١٣ هـ
زهير بن عون « فتح بلرم : ٢١٦ هـ »	٢١٤ هـ
أبو فخر محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب	٢١٧ هـ
أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله	رمضان ٢٢٠ هـ
العباس بن الفضل بن يعقوب بن فرارة « فتح قصريانة : ٢٤٤ هـ »	٢٣٦ هـ
عبد الله بن العباس بن الفضل ، (خمسة أشهر فقط)	٢٤٧ هـ
خفاجة بن سفيان	٢٤٧ هـ
محمد بن خفاجة	رجب ٢٥٥ هـ
أحمد بن يعقوب	رجب ٢٥٧ هـ
جعفر بن محمد بن خفاجة	٢٥٨ هـ
الحسين بن رباح	٢٦٤ هـ
الحسن بن العباس	٢٦٦ هـ

محمد بن الفضلي	٢٦٨ هـ
الحسين بن أحمد	حول سنة : ٢٧٠ هـ
سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي	٢٧١ هـ
محمد بن عمر بن عبد الله	حول سنة : ٢٧٣ هـ
أحمد بن عمر بن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب	٢٧٤ هـ
محمد بن الفضلي « للمرة الثانية »	٢٧٨ هـ
أبو العباس عبد الله بن ابراهيم (الثاني) الأغلبي	٢٠ رمضان ٢٨٧ هـ
أبو منصور زيادة الله	٢٨٩ هـ
محمد السيراقوزي (السرقوسي)	١٩ جمادى الآخرة ٢٩٠ هـ

* * *

ــ ثم حل الولاة الفاطميون ، من ذي الحجة سنة ٢٩٧ هـ ، وحتى سنة ٣٢٩ هـ ، وكان أولهم « الحسن بن احمد بن أبي خنزير » ، وآخرهم « عَطّاف الأزدي » .

ــ ثم حل في صقلية الولاة الكلبيون ، من سنة ٣٣٦ هـ ، وحتى ٤٨٤ هـ ، وكان أولهم « الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي » ، وآخرهم الحسن بن الصمصام بن يوسف .

* * *

المحتوى

للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)
٢ ـ مَنْ ضيَّع القرآن ؟
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين
٤ ـ هارون الرشيد
٥ ـ غريزة .. أم تقدير إلهي ؟
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
٩ ـ الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان

سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

١ ـ القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند بقيادة النعمان بن مقرِّن المزني
٤ ـ ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحِّدي
١٠ ـ العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحِّدي
١١ ـ مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

غزوات الرسول الأعظم

بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدّةِ»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١هـ»